الباب الأول

النقائض فى الجاهلية

الفصل الأول

نشأة النقائض وفنونها

— ١ —

كانت طبيعة الحياة الجاهلية أبعدَ الأسباب فى نشأة المناقضة بين شعراء العربية قبل الإسلام، وكانت العاملَ الأول فى استحالتها من طور السذاجة والطفولة إلى صورتها الكاملة التى ظهر عليها الإسلام فاتخذها شعراؤه أداة جدلية فى ذلك الصراع الأدبى بين التقاليد الجاهلية والأصول الإسلامية .

وأخص ميزات هذه الحياة القديمة هى البداوة الفقيرة الغالبة على معظم الجزيرة العربية ، وقد كانت بداوة صحراوية قاحلة جافة يندر فيها الخصب الداعى إلى الهدوء والاستقرار ، وتنعدم فيها المواد الأخرى التى تقوّم الحياة وتضطر السكان إلى الخضوع لنظم عامة ، وسلطان نافذ يحدُّ من حريتهم الفردية والاجتماعية فى سبيل القوت الموفور ، والأمن الشامل ، والنظام المقرر ، وكان من ذلك أن ضعُف اتصال العرب بالأرض ، وتشبثهم الدائم بإقليم خاص ، وصارت دنياهم متحركة غير قارة ، وحياتهم مضطربة غير منسقة .

هذه البداوة الفقيرة أدَّت إلى ظاهرتين طبيعيتين :

إحداهما هذا الفقر الحسى والعلمى، فما ظنك بحياة تخضع فى كيانها المادى لعامل المصادفة والانتظار السلبى لاتقوم على مصادر منظمة ولا كدح ميقون الآثار، يرقب الأعراب مساقط الغيث فيهرعون إليها أينما كانت لعلهم ظافرون منها بمراع وقتية للإبل والشاه التى يكتسون من أصوافها وأوبارها، ويطعمون بألبانها ولحومها ثم يركبونها عرض البادية فى سبيل مرعى آخر يعتركون حوله . وأما إذا أخلف المطر أو قل الغيث فالجدب المهلك، والبلاء الشامل، وأكل الحشرات، وشرب الماء الآسن، والبؤس الشديد .... مثل هذه الحياة الشحيحة المضطربة لاينتظر فيها سكون أو تفكير علمى أو إقامة معاهد دراسية أو نحو ذلك، فكان جانبها العلمى فقيراً مجدباً، وقصارى ماعند الأعراب معارف تجريبية، وأساطير وخرافات . . . فلما تقدمت بداوتها نشأ فيها الشعر وكان ميزتهم الأدبية البارزة .

والثانية هذا الغنى النفسى، والتشبث بالحرية إلى أبعد الآماد، والنفور من الذلة والخضوع لقوانين حكومية، وكيف يحتمل البدوى ذلك وهو لايظفر بعيش يعوض عليه مايخسر من حرية ؟ أيرضى بالجمع بين فقرين : مادي ونفسى، دون عزاء آخر يرضيه ويطمئن إليه فى هذه الدنيا الجدبة القاسية ؟ إنما تجوز القوانين على الشعب القار الذى ينعم بعيش خصب، وبيئة غنية، وأمن وطيد، يتكالب عليه أفراده فيحتاجون إلى قوانين تنظم حياتهم، وتكبح شياطينهم، وهم بها راضون، لكن الفتى العربى حين حُرم الحياة المادية القانعة نشأت فى نفسه حساسية ثائرة، ونزعة غلابة جعلته ينفر من ذل آخر بجانب قسوة الطبيعية فتحلل من مظاهر الخضوع، وتعلق بالحرية تعلقاً جعله يؤثرها مع فقرها على الغنى الذليل .

ذلك الاضطراب المادى ، وعدم قيام الحكومة العامة التى تفرض النظام ، وتحقق العدالة الداخلية ، والأمن الخارجى ، وتحمى الأفراد والعشائر جعل العربى يبحث عن نظام آخر جزئى يحمى حياته ويحفظ لنفسه عزتها وكبرياءها ؛ فماذا فعل ؟ أنشأ حكومة صغيرة تقوم له فى هذه البادية الرهيبة مقام الحكومة العامة ؛ فكانت القبيلة أو النظام القبلى . . . والقبيلة هى دولة الأعرابى ، وموئله ، ووحدته الاجتماعية ، توافرت فيها المسئولية المشتركة بين أفرادها جميعاً ، فكل فرد صورتها المصغرة وممثلها أمام القبائل الأخرى وفى الأسواق والنوادى وفى الشعر والنثر ، وهى مسئولة عن جرائر الأفراد وحمايتهم ، وبذلك تكوّن عقد اجتماعى يضم أعضاءها ويؤلف منهم عصبة واحدة لئلا تأكلها ذؤبان الأعراب ولصوص الصحراء[1] .

الفقر ، والحرية ، وهذه المسئولية المشتركة بين أفراد القبيلة . . نشأ عنها عدم احتمال الضيم والثورة لأقل الأسباب ، والعمل على إشاعة رهبة القبيلة بين القبائل ، والتعلق بأسباب العيش المادى مهما يلق الإنسان فى ذلك من مشاق وعناء ، لذلك كانت الحياة الجاهلية حياة حمراء ، وعراكا دائباً فى نواحى هذه الجزيرة بين القبائل فرادى وجماعات ، وكانت الوشائج والصلات القبلية كالحدود القومية للشعوب الحديثة ، ولتقويم هذه الصلات القبلية قامت مسألة الأنساب لمعرفة أصول القبائل وفروعها وتكوين عصبياتها ، ومهما تكن قيمة الأنساب العلمية فقد صارت من مقومات الحياة الجاهلية وأصلا من أصولها الاجتماعية والأدبية .

كان العرب يقتتلون على المياه ، والآبار ، والمراعى ، وكل مظاهر الخصب ، وعلى حماية اللطائم ، وما يجبى من القوافل ، وطرق التجارة فى الجزيرة ، وفى سبيل

---

(١) راجع تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ٢٥ الطبعة الأولى .

الكرامة ، وعزة النفس ، وحماية الجار والعرض ، وفى الثأر والنجدة للصديق أو الحليف أو القريب ، ولأجل الرياسة وزعامة القبائل وفى سبيل النفوذ الخارجى كما كان بين المناذرة والغساسنة فى ظل الفرس والروم وأخيراً فى سبيل الفقراء والحنق على الأغنياء كما حدث من الصعاليك والغربان .

على هذه الأسس قامت حروب العرب الداخلية الكثيرة التى لم تنقطع ،وأما حروبها الخارجية فكانت قليلة ، وكانت فى وجه الفرس غالباً وفى وجه الحبشة والروم قليلا ، ولم يكد يجتمع العرب لحرب خارجية فى صورة أمة واحدة .

كانت الحرب ، إذاً ،ضرورة للحصول على العيش وتحقيق الحرية والكرامة ثم صارت ، مع الأيام ، غاية يفخر بها الشيوخ والفتيان و يتخذها بعضهم حرفة ومفخرة ، و يعدونها المشغلة الأساسية لحياة الرجل فيعدونه لها ، و يعدونها امتحان رجولته و بأسه ووسيلة الظفر بإعجاب الرجال والنساء .

هذه الحروب أو الأيام — وهو الاسم الاصطلاحى الذى يطلقه عليها المؤرخون والقصاص — كانت تستلزم الشعر حتما ، وكانت أشبه شىء بالثورات السياسية التى تستدعى نهضة أدبية تؤرث نارها وتسجل آثارها ، وتدعو إليها فكانت هذه الفنون الشعرية المتصلة بأيام العرب من حماسة ، وفخر ، وهجاء ، ورثاء ، وإذا لاحظنا أن الحماسة من باب الفخر أو هى منه بسبب قوى ، وأن الرثاء إنما كان تصويراً لشعور الحزن ومعرضاً للفخر والوعيد ، انتهينا إلى هذين الفنين : الفخر والهجاء ؛ فكانا أهم فنون الشعر الحربى أو الشعر السياسى القديم . ومن الملاحظ أن نشأة الشعر القديم أو نهضته إنما كانت مصاحبة للحروب ، وفى ظلال السيوف ، وكان فن الحماسة من أقدم فنون الشعر .. والعربى منه بخاصة .

— ٢ —

ولكن كيف اتصلت هذه الفنون الشعرية بالنقائض ؟

من الطبيعى أن ينشأ فن الحماسة دعوةً إلى القتال فى سبيل العيش أو الكرامة من جانب كل قبيلة ، وأن يتبع النصر أو الهزيمة فخر أو وعيد وتهديد بالانتقام أو حفز للأخذ بالثأر أو تسجيل للانتصار ، وذلك يستتبع هجاء العدو ، ونشر مخازيه ، وذكرَ جُبْنِه وفراره أو خضوعه وأسره ثم يكون بكاء القتلى والعزم على الثأر لهم وبذلك تتجاوب أرجاء الجزيرة بهذا الشعر الحربى الذى كان وقوداً لهذه النار .

كان الشعر حرباً أدبية تساير هذه الحروب المادية ، وكما كانت أدوات الحرب المادية متشابهة متناقضة ، فكذلك كانت فنون هذا الشعر متشابهة متناقضة ، يلقى بعضها نظيرَه متحدياً عنيداً يثبت له أو يهزمه ؛ فالفخر يلقاه فخر ، والهجاء ينقضه هجاء ، والحماسة تصطدم بنظيرتها ، وهكذا تتلاقى الفنون وتعترك المعانى فى سبيل القبائل وفى ظلال الأيام .

أما عن المصدر النفسى أو الفنى لتولد النقائض من هذه الفنون فالأمر ، عندى لا يعدو أن يكون عَدْوى نفسية ومسايرة ، وقبولا للتحدى ؛ فالمشاهَد بين الأحياء أن يصيح الفرد فى وجه آخر عاتباً ، أو سباباً ، أو مهدداً أو هازئاً فيرد عليه الآخر بنحو صياحه عاتباً أو سباباً أو مهدداً أو ساخراً ملتزماً معانيه وأسلوبه ، يضع بازائه نظيره ، ويفسد عليه معانيه ، وقد يستدعى الموقف عراكا وهلاكا . كذلك يبدأ الشاعر بالفخر أو الهجاء ، رافعاً عقيرته فينبرى له نِدُّه من قَبيل آخر ، مثلا ، ليرد عليه من نفس بحره وقافيته ليحقق بذلك الموسيقا الصوتية ، وليرد عليه صيحته المدوِّية ، ويتحداه بنفس أسلوبه ؛ فإذا تناول معانيَهُ ردّها عليه فاسدة لأنها كذب

وافتراء ، أو لأن له عندها نظائرها ، أو لأن تفسيرها غير ما قال الأول أو لغير ذلك من طرق المناقضة ، وبذلك يشترك الشاعران فى جو واحد من أجواء الخصومة الشعرية . يغمرهما معاً حتى يشتفيا ، ثم هما متربصان إلى مثل ذلك الموقف إن اقتضته الحال ، وكثيرا ما تقتضيه الحال .

ولما كان الفخر والهجاء فى مقدمة الفنون التى قامت عليها المناقضة أو هما فناها الأساسيان ، ناسب أن نقول فى كل منهما كلمة إيضاحية تبين حقيقته وخواصه .

وقد سبق أن الفخر هو التمدح بالخصال ، وعدّ القديم ، وادعاء العظم والكبر والشرف ، وتفاخر القوم فخر بعضهم على بعض . والفخور المتكبر[1] .

وهذا معناه أن الفخر يصدر عن نفس متعالية متعاظمة ، ويتخذ معانيه من جانب المفتخر نفسه أو قومه بخلاف الهجاء فإنه يصدر عن نفس ساخطة أو مزدرية ساخرة ، ويتخذ مادته من جانب المهجو نفسه أو قومه ، فهما فنان متقابلان وإن اختلطا معاً فى القصائد وتلازما لأن الذى يتعالى على غيره إنما يحقره صريحاً أو استلزاماً .

وقد قام الفخر على الفضائل الاجتماعية التى أقرتها الحياة العربية القديمة كالكرم ، والشجاعة ، والنجدة ، وكثرة العدد ، والسيادة ، والظفر فى الحروب ، والمروءة ، وشرف الأنساب والأحساب كما كان الهجاء يضدها .

كان الفخر ، كما قلنا ، ظاهرة طبيعية بين الشعراء الجاهليين اقتضتها حياة القبائل المتحاربة والأفراد المتنافسين ، بل هو ظاهرة اجتماعية عامة ، يحاول بها كل

---

(١) راجع لسان العرب مادة فخر والعمدة لابن رشيق جـ ٢ ص ١١٤ .

أن يثبت امتيازه وتفوقه على غيره إشباعا لشهوة العزة و إرضاء لحب المتسامى والشرف ؛ عرفه الشعر الجاهلى من أقدم عهوده ، وعرف به جماعة من فحول شعرائه كطرفة ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حِلزة ، وعنترة العبسى ، ولبيد بن ربيعة ، وحسان بن ثابت ، وقيس بن الخطيم ، وشاع فى شعر (الأيام) وكان سجل المعارك كما كان قَبَلياً وفردياً ، ولعل الغالب عليه كان الفخر بالقبائل استجابة للنظام القبلى فى حياة البادية ، وسنداً لفن المناقضة العامة .

فلما جاء الإسلام بقى هذا الشكل وأضيف إليه الفخر بالدين ، والسلطان ، والجهاد فى سبيلهما ، والنهوض بالملك وأعبائه حتى إذا تقدم القرن الأول وحيّت العصبيات القبلية فى ظل الأمويين عادت الصورة الجاهلية قوية وشاعت على ألسنة الفحول الإسلاميين حتى بلغت الذروة ، فتراهم يعدون أفخر بيت قول الفرزدق :

ترى الناسَ ما سِرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

أو قول جرير : —

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبتَ الناسَ كلهم غِضابا

أو قول ابن ميّادة : —

ولو أن قيساً قيسَ عيلانَ أقسمت على الشمس لم يطلع عليكَ حجابُها

وأفخر بيت صنعه مُحدَث عندهم قول بشار : —

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجابَ الشمس أو أمطرت دما

إذا ما أعرْنا سيداً من قبيلة ذُرا منبر صلّى علينا وسلما

وقد أدرج أبو تمام أمثلة الفخر فى باب الحماسة وهو الباب الأول من مختاراته المعروفة (بديوان الحماسة) باعتبار أن معنى الحماسة الشدة والشجاعة ، وأن الفخر فن القوة ، وتصوير الشجاعة وآثارها فى الحروب والمواقف الخطيرة ، وعلى كل فقد

كان الفخر أحد ركنى النقائض فى تاريخها منذ نشأته الجاهلية إلى أن مات فحولها الإسلاميون .

أما الهجاء فهو الشتم بالشعر كما يقول ابن منظور وهو خلاف المدح . والمهاجاة بين الشاعرين ينهاجيان ، وهم يتهاجون : يهجو بعضهم بعضاً [1] والهجاء ظاهرة السخط أو السخرية كما علمت ، يتخذ معانيه من سوءات المهجو أو مثالب قومه . فالمفتخر يلتفت إلى نفسه ليشتق منها مادته والهاجى ينظر إلى خصمه لينشر مساويه مقرراً أو ساخراً .

ويفضل النقاد السابقون ما كان من الهجاء عفاً خالياً من الفحش بحيث تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها نحو قول أوس : —

إذا ناقةٌ شُدَّت برحلٍ ونُمرقٍ إلى حيِّكم بعدى ، فضلَّ ضلالُها

واختار أبو العباس قول جرير : —

لو أن تغلبَ جمَّعت أحسابَها يومَ التفاخرُ لم تزن مِثقالا

وأشده ما كان إقذاعا وهو ما فيه تفضيل قوم على قوم كقول جرير : —

فَغُضَّ الطرفَ إنكَ مِن نُميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

ومن كلام صاحب الوساطة : « فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزّل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه ، وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ، ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والإفحاش فسباب محض ، ليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن »[2] . لذلك أعجب النقاد بقول زهير فى تشكيكه ، وتهزله ، وتجاهله فيما يعلم :

---

(١) لسان العرب مادة هجا . وراجع والعمدة لابن رشيق جـ ٢ ص ١٣٨

(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٣٩ والوساطة ص ٣٩ .

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء
فإن تكن النساء محبّآت فحقّ لكل مُحْصَنةٍ هُداء

وعدوه من أشد الهجاء وأمضّه ، وكذلك لم يرض النابغة الذبيانى عن إفحاش قومه فى هجاء عامر بن الطفيل بعد وقعة (حَسْى) لشرف عامر ولكنه هجاه متهكماً به فآلمه ، وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود وترك الفحش فيه أصوب إلا جريراً قال لبنيه : « إذا مدحتهم فلا تطيلوا المادحة ، وإذا هجوتم فخالفوا » ، وقال أيضاً : « إذا هجوت فأضحك » . وسلك طريقته فى الهجاء سواء على بن العباس الرومى فانه كان يطيل ويفحش . يقول ابن رشيق : « وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح لا تساع الظن فى التعريض ، وشدة تعلق النفس به . والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً وقبلته يقيناً فى أول وهلة ، فكان كل يوم فى نقصان لنسيان أو ملل يعرض ، هذا هو المذهب الصحيح على أن يكون المهجو ذا قدر فى نفسه وحسبه ، فأما إن كان لا يوقظه التلويح ولا يؤلمه إلا التصريح فذلك »[١] .

ويوازن الغربيون بين الشعر الهجائى Satiric Poetry وبين الشعر التعليمى Didactic Peotry ويرون أن الأول نص على الرذائل والأخطاء الاجتماعية والثانى إشادة بالفضائل وحث على التمسك بها . فغايتهما واحدة هى توجيه الناس إلى الخير والكمال[٢] ، وذلك غير الشتم والسباب .

نشأ الهجاء مع الفخر قديما ، وقامت معانيه على الرذائل الفردية والاجتماعية

---

(١) نفس المرجع ص ١٤٠

(٢) راجع
Stephens. introduction to the study of English Literature p 83

كالبخل ، والجبن ، والفرار ، وَضَعةِ الأحساب والأنساب ، وغلب عليه فى الجاهلية القصد والاعتدال والبراءة من الفحش والإقذاع .

ولما جاء الإسلام ونشط الهجاء فى سبيل دعوته كان منه نوعان أول الأمر أحدهما جاهلى قديم يتصل بالأحساب ، والأنساب ، والأيام يمثله حسان بن ثابت وكعب بن مالك لإغاظة قريش قبل أن تسلم إذ كان أفقهم جاهليا فلما أسلموا لم يروا فيه خطراً لأنه يناقض روح الإسلام الذى اعتنقوه ، فلا بأس عليهم من هجاء جاهلى قديم ، والثانى مذهب إسلامى يمثله عبد الله بن رواحة ، وكان يهجوهم بالكفر والإعراض عن سبيل الهداية فما كانوا يبالونه إذ كان ذكراً لما هم عليه وراضون به ، فلما أسلموا وجدوا ماضياً سيئاً مسجلا عليهم فأنفوا منه ، وربما أضاعوا شعره .

ومع ذلك فقد بقى النوع الجاهلى يمثله الحطيئة أصدق تمثيل حتى كان العصر الأموى فدخل فيه الفحش والإقذاع إلى مدى بعيد ونال من الأعراض والحرمات ، وصوّر القبائح صوراً شنيعة ، وقد جلّى فى ذلك جرير والفرزدق والأخطل فى النقائض ، وبلغوا بالهجاء مبلغاً أساء إلى الأخلاق وأزرى بالكرامات .

وهناك فنون أخرى لا بست النقائض ودخلت فيها كالنسيب ، والرثاء ، والوصف والسياسة ترد أثناء الدراسة ، وسنرى أنها كانت متأثرة بهذين الفنين وخاضعة لتيارهما ، فلنرقبها فى طريقنا .

— ٣ —

على أنه ليس من طبيعة الأشياء أن تطلع علينا النقائض ، أول ما تطلع ، كاملة الصورة ، تامة التقاليد والعناصر ، متوافرة الشرائط والطرائق كما رأيناها

أخيراً عندجرير وصاحبيه ؛ فلا بد أن تدرج طفلة ثم تيفع وتشبَ إلى أن تستوى ناضجة متجاوبة الموسيقا متقابلة المعانى ، ولو توافرت لنا نصوصها مرتبة ترتيباً تاريخياً ، محققة تحقيقاً ، علمياً إذاً ، لاستطعنا أن نؤرخ حياتها الأولى ، ونتبين كيف تعثرت فى بعض التقاليد والفنون حتى أخذت صورتها الأولى فى العصر الجاهلى ، ومع ذلك فلنتخذ من هذه النصوص المبعثرة ما يقرب لنا تدرج هذا الفن من درجة الحوار الأولى الساذج إلى طور المناقضة الفنية المعروفة ؛ فإذا صح ما روى لنا من نصوصها القديمة ، كانت النقائض نثراً أوّل أمرها وكانت رجزاً أيضاً ، ثم كانت تنشأ على أساس الانتصار فى الحروب أو الخلاف فى المواقف الاجتماعية مدعومة بالبراهين أو معتمدة على الفخر والهجاء معاً أو منفردين . وكانت تعنى بالمقابلة بين المعانى دون التزام سائر التقاليد أو بعضها ، فكانت أشبه برد وإنكار . . . وبقيت كذلك مدة ما ، حتى كانت نهضة الشعر وظهور فحوله فتمت على أيديهم تقاليدها وإن بقيت صورة (الرد) تتراءى خلال النقائض الكاملة المشهورة .

ومن أول ما يلقانا من هذه النصوص ما ورد فى أقاصيص طسم وجديس أن امرأة من جديس شكت إلى ملكهم (عمليق) أن زوجها طلقها ويريد أخذ ابنها منها فقالت لمرأة : « أيها الملك ، حملتُه تسعاً ، ووضعته دَفعاً ، وأرضعتُه شفعاً ، فلما تمت أوصاله ، وحان فِصاله ، أراد أخذه منى كرهاً ، ليتركنى مَرهاً » — أى ذاهبة العقل — فقال الزوج : « أيها الملك ، أعطيتُها المال كاملا ، ولم أصب منها طائلا ، إلا وليداً خاملا ، فافعل ما كنت فاعلا »[1] .

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ٤٨ بولاق

فأنت ترى أن المرأة تحتج بما لقيت فى سبيل وليدها من جهود وآلام حتى تمت أوصاله ، ولكن الرجل ينقض حجتها بما دفع من ثمن ذلك ليظفر بوليده.

وهى مناقضة نثرية يغلب عليها الصنعة والوضع و إن كانت تمثل عسف هذا السلطان البائد لأن الملك أمر بالغلام ، فيما أمر ، أن يُسترق فى مماليكه ، فغضبت المرأة وهجت الملك فأمر هذا ألا تزف امرأة من جديس إلى زوجها حتى تدخل عليه ، ومكث على تلك السنة مدة إلى أن ثارت امرأة من جديس تدعى (عفيرة) واستحثت قومها على الملك فغضبوا عليه بزعامة أخيها الأسود بن عفار ، فعرض على الملأ من قومه أن يدعوا الملك ورهطه إلى طعام فإذا حضروا قتلوهم ، فلما بلغ ذلك عفيرة قالت :

لاتغدرُنّ فإن الغدر مَنقصةٌ ... وكل أمرٍ له غِبٌّ و إن صَغُرا
إنى أخاف عليكم مثل تيكَ غداً ... وفى الأمور تباعيد لمن نظرا
حُشُّوا سعيراً لهم منا مُناهضة ... فكلكم باسلٌ أرجو له الظفرا
سِيَّانِ باغٍ علينا غيرَ مُتَّئِدٍ ... يغشَى الظلامةَ لا يُبقِى ومن غدرا
فناهضوا القومَ صبراً فى ديارهمُ ... على الكريمة حتى تخطموا القَصَرا

فردّ عليها أخوها الأسود بقوله :

إنى لَعمرك لا أبدى مُناهضة ... للقومِ أخشى صُروفَ الحَينِ إن ظُفِرا
فى التحمُّلِ للأقوامِ مُدرَكةٌ ... وفى الأمور تباعيد لمن نظرا
كُفِّى لَديكِ ولا تَنهَى لعاقِبَةٍ ... أخاكِ فيما يرى فى الرأى إن حَضرا
إنى زعيم لِطِسم حين يحضُرنا ... إلى الطعام ، وذاك الرأى إن قُدِرَا
فليس ينفع ذا رأى يدبّرهُ ... زجر الزواجر والأيمانُ إن زُجِرا

وعصاها وأطاعه قومه ، وقتلوا الملك فى خبر طويل[١] .

فاعجَبْ لهذه المناقضة الشعرية التامة الأركان : وحدة الموضوع ، والبحر ، والروى ، وحركته ، مع تقابل المعانى تحقيقاً لهـذه الصورة الجدلية ، والراجح أن هذا من وضع القصاص ، ومما يكشف الأمر هذا التقليد الواضح ، فـكما كان جرير يأخذ من شعر الأخطل أو الفرزدق الشطر أو البيت أثناء المناقضة ، نجـد الواضع هنا يفعل ذلك و يوزد فى شعر (الأسود) هـذا الشطر الوارد فى شعر (عفيرة) « وفى الأمور تباعيد لمن نظرا » .

ور بما كان أدنى من ذلك إلى الصواب ، و إن لم يكن بريئاً من الوضع أيضاً ما دار بين مَعديكَرِب بن الحارث بن عَمرو بن حُجر الـكِندى و بين أبى حَنَش يوم الـكُلاب الأول ؛ فقد كان بين سَـلَمة بن الحارث وأخيه شرَحبيل ، وفيه يأتى (أبو حَنَش) عُصَم بن النعمان من بنى جشم بن بكر برأس شرحبيل و يضعه أمام سَلَمة ، فقال سلمة وقد أسف لمصرع أخيه ورأى منه ذلك أبو حنش فهرب بعدما كان ينتظر الجائزة ، وقيل إن الشعر لمعديكرب أخيهما : —

ألا أبلغ أبا حَنَشٍ رسـولا ... فما لك لا تجىء إلى الثواب ؟
تعـلّم أن خير الناس طُرًّا ... قتيلُ بينَ أحجار الـكُلابِ
تداعت حوله جُشم بنُ بكر ... وأسـلمه جعاسيسُ الـرِّبابِ
فتيلُ ما قتيلك يابنَ سَـلمى ... تَضرُّ به صديقَك أو تحـابى

فأجابه أبو حنش فقال :

أحاذرُ أن أجيئك ثم تحبـو ... حِباءَ أبيك يوم صُنَيعِباتِ[٢]

---

(١) شرح ديوان الأعشى طبع أوربة ص ٧٤ـ٨٢ . (٢) يوم صنيعات : قيل كان للحارث الـكندى ابن مستوضع بين حيين من العرب تميم وبكر ، فمات يقال لدغته حية فقتل به خمسين من بكر

وكانت غَدرةً شنعاء سارت تقلّدها أبوك إلى الممات
تتابعَ سبعةٌ كانوا لأمٍّ كأجرام النّعامِ الحائراتِ (١)

فالموضوع واحد ، وكذلك البحر ، ولكن القافية مختلفة بينهما ، وكان الثانى رداً على الأول وشكا فيما يدعيه سلمة من إثابة أبى حنش على قتله خصمه كما وعد. نحو هذه الصورة الناقصة وحدة القافية يصح أن تكون خطوة فى طريق تدرج النقائض إلى النضج والكمال لو نُفِى عنها الوضع .

ومن هذا الضرب ما دار بين امرىء القيس وعبيد بن الأبرص الأسَدى حول مقتل حُجر فيما يُحكَى . فقد كان قطعاً مضطربة فيها حوار وجدل قل فيه اكتمال المناقضة وتمام صورتها المقررة . فمن المشهور أن امرأ القيس لما قتلت بنو أسد أباه حُجراً قال متوعداً :

والله لا يذهب شيخى باطلا حتى أبير مالكا وكاهلا
القاتلينَ الملكَ الحُلا حِلا خيرَ مَعدٍّ حسباً ونائلا
يالهفَ هِندٍ إذ خطئن كاهلا نحنُ جلبنا القرّحَ القوافلا
يَحمِلْنَنَا والأسلَ النواهلا مستثفرات بالحصى جوافلا
يستثفر الأواخرُ الأوائلا فصرْتُ فيهم غانماً وقاتلا

هذا الرجز كان من أسبق ما قال شيخ الشعراء فى مهلك أبيه الملك ، وكان فاتحة للحوار بينه و بين شاعر الأسديين ، وربما كانت الأبيات الآتية ردّ عبيد على امرىء القيس ، يسخر به ويكذبه فيما يدعى من حماسة وظفر ، يقول عَبيد :

يا ذا المخوّفنا بقتـــــل أبيه إذلالا وحَينا
أزعمتَ أنك قدقتـــــلـ ـتَ سراتِنا كذباً ومَينا

---

(١) ابن الأثير جـ١ ص ٢٣١ والعقد الفريد جـ٣ ص ٣٥٣

هـــلاَّ على حُجر بن أمّ قطَامِ تبكى لا علينـــا

فهو ، إن صح ، ردّ أوّلىّ ساذج لم يتقيد بأصول المناقضة ، ولما تعقب امرؤ القيس بنى أسد ففاتوه ولقى كنانة ووضع فيهم السلاح خطأ قال : —

ألا يالهفَ هِنـدٍ إثر قوم هُمُ كانوا الشفاء فلم يُصابوا
وقاهم جـدُّهم بِبَنى أبيهم وبالأشقَينَ ما كان العقابُ
وأفلتهنّ عِلبـاءٌ جريضا ولو أدركْنَه صَفِرَ الوِطاب[1]

ويظهر أن هذه الأبيات بلغت عبيداً فقال ينقضها على امرىء القيس : —

أتوعدُ أُسرتى وتركتَ حُجرا يُريغ سوادَ عينيه الغُرابُ
أَيَى دِينَ الملوك فهـم لَقاح إذا ندبوا إلى حرب أجابوا
فلو أدركتَ عِلباءَ بنَ قيس قنِعتَ من الغنيمة بالإيابِ

يعيّرة مصرعَ أبيه ، ويهدده بقومه ، ويرميه بقصور همته دون الانتقام من بنى أسد ، وعلى الرغم من ادعاء امرىء القيس أنه ظفر بثأره[2] فإن القصة تدل على خلاف ذلك بدليل انصراف أنصاره عنه مع قلتهم ، وبلاء بنى أسد فى سبيل حريتهم ، وسخرية عبيد به[3] ومطاردة المناذرة له والتجائه إلى السموءل فالغساسنة فالروم ثم مصرعه آخر الأمر .

هـذه الشواهد وغيرها مما ورد فى ديوانى امرىء القيس وعبيد متصلة بيوم حجر تدل على أن هذا الحوار لم يتخذ صورة المناقضة دائماً ، وإنما تردّد بين الرد والحوار أيضاً ، مما يمثل طفولة هذا الفن بين هذين الشاعرين .

---

(١) هند أخت امرىء القيس ، علباء بن الحارث الأسدى قاتل حجر . جريض غاص بريقه صفر الوطاب : خلا بدنه من روحه — الديوان ص ١٥ ط السندوبى
(٢) الديوان ص ١٥١ . (٣) ديوان عبيد طبع أوربة ص ٥٢ .

وفى تضاعيف هذا الجدل الشعرى فى سبيل الأيام ، والحوادث ، والمقامات ، نجد صوراً لاتبلغ درجة المناقضة و إن لم تبعد عنها كثيراً ولا سيما فى جانب المعانى .

من ذلك ما كان يوم الكلاب الثانى حين قال راجزٌ من بنى مَذحج : —

فى كلِّ عام نَعَمٌ نتابُهْ على الكلابِ غيّبٌ أصحابُهْ

فسمعه غلام من سعد أعدائهم فأجابه : —

فى كل عامٍ نعـــمٌ تحوونه يُلحقه قومٌ وينتِجونَهْ
أربابُه نَوْكى فلا يحمـونَه ولا يلاقون طِعاناً دونَهْ
أنعمَ الأبناء تحسبـــونَه هيهات هيهات لما توعدونَهْ(١)

هذه مراجزة تقوم على المناقضة المعنوية و إن لم يلتزم فيها وحدة القافية . ومن ذلك ما كان بين عامر بن الطفيل وزيد الخيل ؛ فقد خرج رجل من طيىء اسمه دؤاب إلى صهر له فى هوازن فأصيب ، فلما علم زيد أغار على عامر ، وعاد يقول لا يبوء به إلا عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، فأما ابن الطفيل فلا يبوء به ، وقال زيد : —

لا أرى أنْ بالقتيل قتيلا عامرياً يفى بقتلِ دُؤاب
ليس مَن لاعب الأسنة فى النقـ ـع وسمى مـــلاعباً بإراب
عامر ليس عامرَ بنَ طُفَيـل لـكن العمر رأس حىّ كلاب
ذاك إن ألقـه أنال به الوتـ ـرَ وقرّت به عيون الصِحاب

فغضب عامر بن الطفيل وقال يجيب زيد الخيل : —

قل لزيد قد كنت تؤثر بالحِلـ ـمِ إذا سُفِّهت حلومُ الرجالِ
ليس هذا القتيلُ من سلف الحـ ـىّ كُلاع ويَحصُب وكُلال

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ص ١٣٧ والعقد الفريد ج ٣ ص ٣٥٤ .

أو بنى آكل المرار ولا صيـ ـدِ بنى جفنة الملوك الطوال
إن فى قتـــل عامر بن طفيل لبَواءً لطيء الأجيل[1]

ينقض عامر معانى زيد فيهوّن من شأن القتيل ، ويضع نفسه بإزاء طيء كلها ، مع وحدة البحر دون القافية .

ولما قتل الحارث بن ظالم المرى جعفرَ بن كلاب العامرى لحق بحاجب بن زُرارة التميمى ، فلما طلبته بنوعامر نحّاه عنه حاجب ، فغضب الحارث وقال : —

لعمرى لقد جاورتُ فى حىّ وائلٍ ومن وائلٍ جاورتُ فى حىّ تَغلِبِ
فأصبحتُ فى حىّ الأراقم لم يقل لى القوم : ياحار بنَ ظالِم؛ اذهبِ
وقد كان ظنّى إذ عقلتُ إليكم بنى عُدُس ظنّى بأصحاب يثربِ
غـــداةَ أتاهم تُبَّع فى جنوده فلم يُسلموا المرّين من حى يَحصُب
فإن تك فى عُليا هوازنَ شوكةٌ فأعجبْ بها مِن حاجبٍ ثم أعجِبِ

فغضب حاجب وقال : —

لعمرُ أبيكَ الخير ، ياحار ، إننى لأمنعُ جاراً من كُليبِ بن وائل
وقد عـــلم الحىُّ المعدِّىُّ أننا على ذاك ، كُنا فى الخطوب الأوائل
وإنا إذا ماجاء جأى ظُلامة لبســـناله ثوبى : وفاء ونائل
وإن تميما لم تحارب قبيـــلة من الناسِ إلاّ أولعتْ بالكواهل
ولو حار بتْنا عامرٌ يابنَ ظـالمٍ لعضّت علينـا عامرٌ بالأنامـل
ولاسْتيقنت عُليا هوزانَ أننا سنُوطئُها فى دارها بالقنـابل
ولـكننى لا أبعث الحربَ ظالما ولو هِجتُها لم أُلفَ شحمةَ آكل[2]

أخذ الحارث على حاجب بن زرارة أنه لم يمنعْه منعة تغلب ، وأنه خيّب فيه

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ٥٣ بولاق .
(٢) الإغانى جـ ١٠ ص ٢٠ بولاق .

ظنه ، وأن هوازن ، من قيس عيلان ، أعز من تميم ، فرد عليه حاجب بأنه أعز من كليب بن وائل سيد تغلب الأول ، وأن تميما معروف بالبأس والوفاء والنجدة ، وأن بنى عامر أو هوازن ، من قيس عيلان ، لا يثبتون لتميم ، ولكن حاجب بن زرارة لم يشأ ، بحمايته وهوجانٍ ، أن يبعث حرباً ظالمة ، فى حين أنه فى الحروب مظفر مقدام .

فالموضوع واحد وكذلك البحر دون القافية مع تناقض المعانى كما رأيت ، ومثل هذا لا يعوزه من شروط النقائض إلا وحدة القافية .

ومع تقدم هذا الفن الجدلى أخذ يستكمل صورته الأخيرة بين الجاهليين حتى رأينا منه نحو هذه الصورة الكاملة التى صارت تقليداً فنيا يعده التاريخ الأدبى طور النقائض الأولى ، كما مرت أمثلة فى التمهيد .

ونشير هنا إلى قصيدة قيس بن الخطيم الأوسى فى حرب بعاث وحاطب :—

أتعرف رسماً كاطراد المذاهبِ لأسماءَ وحشاً غير موقف راكبِ

ونقيضتها لعبد الله بن رواحة : —

أشاقتك ليلى فى الخليط المجانبِ نعم ، فرشاشُ الدمع فى الصدر غالبى[1]

وغيرهما كثير يرد عليك فى الفصول التالية .

وخلاصة هذا الفصل أن النقائض فن جاهلى قديم نشأ مع النهضة الشعرية طفلا ساذجاً ناقص الأركان ثم أخذ يستكمل ، على الأيام ، أركانه ، وعناصره ، معتمداً ، أكثر ما اعتمد ، على فنى الفخر والهجاء ، حتى تمت له أوضاعه وشرائطه وسنرى فيما يلى كيف عملت فيه مقوماته ودواعيه مدة الحياة الجاهلية .

---

(١) راجع ديوان قيس بن الخطيم ، طبع أوربة ١٠ و ٣٦ .

الفصل الثانى

فى مُقوِّمات النقائض وعناصرها

— ١ —

نحاول هنا الإلمامَ بهـذه العناصر العامة التى كانت مردَّ النقائض وأصولها الأولى ، ثم كانت مادتها ومقوِّمَها الذى اتكأت عليه فى حياتها وأطوارها جميعاً ، ولا سيما فى الطور الجاهلى القديم . وقد بينا فى الفصل الماضى كيف كانت الحياة العربية قبل الاسلام السبب الأصيلَ لنشأة هـذا الفن وتحديد فنونه الرئيسية ، ونذكر هنا أن هـذه الحياةَ البدوية نفسهَا وما استدعت من تقاليد اجتماعية ، وأصول أخلاقية ، هى التى قدَّمت للمناقضة حوافزها الدافعة إليها ، وظلها التى عاشت فى رعايتها .

و إذا كنا قد رأينا أن (الأيام) كانت مجال النقائض ومعرضَها الحربى فإن هذه (الأيام) لم تقم عفواً بل وقفت تحت ألويتهاَ جماعات متعاركة متهالكة ، ألّف بين كل فريق منها وشائج القرابة وما إليها فكانت هى القبائل والعشائر والبطون ونحوها ، وذلك يستدعى منا القول فى الأنساب ، على أن (الأيام) لم تنفرد بمدّ الشعر القديم بالنقائض ، و إنما شاركها فى ذلك حوادث اجتماعية أخرى متصلة بالعرف الجارى بين الأفراد والعشائر أو بالأصـول الخلقية المقررة ، ومنها ما كان سلمياً أو مؤديا إلى مغاورات أو قتال جزئى بين الأسر أو بعض بنيها ، ثم جاء القصص بعد ذلك وروى هذه الأحداث ، والأيام ، والأنساب ، مبالغاً محرفاً

فيها لدواع عصبية شتى ، فكان لزاماً علينا أن نشير إلى هذه المقوّمات التى سندت النقائض وكانت مُتّكأ رجالها من الشعراء .

وأول ذلك الأنساب[١] والنسب القرابة مطلقاً و إن غلبت عندالأعراب على القرابة من جهة الآباء . والعناية بالأنساب : أصولها وسلاسلها ، ظاهرة بدوية قديمة تحرص عليها الجماعات الأولى لتكوين العصبيات القبلية أو الجنسية احتفاظاً بالقربى ، وتوفيراً للوحدة والمعاونة ، وعرفاناً لمواطن الثارات ، ونفياً للغريب ، وتنظيما لمسائل الإرث والزواج ، ودفعاً لعدوان المنافس والمغالب لتعيش القبيلة عزيزة الجانب ، آمنة مذلة الجيران والعادين ، متعاطفة الآباء والأبناء ، وهى بعد ذلك تعرف مفاخرها ، وأيامها ، فيسجلها شعراؤها و يناقضون بها خصومهم من شعراء القبائل الأخرى ، وربما امتاز العرب من الفرس بحفظ أنسابهم والعناية بها، ولعلهم تأثروا باليونان واليهود فى ذلك أو أشبهوهم على أقل تقدير .

ذلك هو الوضع الطبعى العام لقيمة الأنساب وضرورتها عند البادين ، أما عن مقدار حظها من الصواب أو الحق العلمى فالقول فيه كثير ، ومن الخير أن نتجاوز فى نظرتنا التاريخية طور الطوتمية والأمومة ونحوهما ، فإن البحث فيه يطول ولا يجدى من الناحية العملية المتصلة بالأيام والنقائض على أنه لا يزال مجال الحدس والتخمين[٢] فاذا فعلنا ذلك ووقفنا عند الجاهلية الأخيرة وما روى عنها من سلاسل النسب وأصولها رأينا من ينكرها إنكاراً تاماً و يعدها وهماً باطلا اخترع بعد

---

(١) راجع فى الأنساب كتب : الأنساب للسمعانى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ونسب عدنان وقحطان للمبرد ، والمعارف لابن قتيبة ، ونهاية الأرب للنويرى ، وصبح الاعشى للقلقشندى ، وسبائك الذهب للبغدادى ، والاحكام السلطانية للماوردى وجمهرة أنساب العرب لابن حزم الاندلسى ونسب قريش للمصعب الزبيرى .

(٢) راجع فى ذلك أنساب العرب القدماء لجورجى زيدان والأساطير العربية قبل الاسلام لمحمد عبد المعيد خان .

الإسلام لعوامل دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية[١] وقد يسعف هذا الفريق براهين شتى ؛ فليس يسيرا أن يوجد فى البادية علم الأنساب القائم على دراسة الصلات الدموية ، و إحصاء المواليد . وردها إلى الآباء والأمهات ، وحفظ ذلك ميراثا للأجيال المتعاقبة ، إنما ذلك من ثمار الحضارة المستقرة والنشاط العلمى الدقيق ، أما الاعتماد على الروايات ، وحظ الذاكرة . ورجم النسابين فلا يمكن الثقة به ولا سيما إذا عرض له النسيان ، والمبالغة ، وعمل الأهواء والعصبيات ، وتأخر عصر التدوين . وهناك مع ما سبق كثرة تنقل القبائل ، وافتراقها ، والتداخل بينها ، ومن ينضم إليها بطريق الحلف والاستلحاق والولاء والاسترقاق كما حالفت جَديلة كلباً ودخلت فيها لما ضعفت أمام الغَوث عقب يوم اليحاميم[٢]. والذين ينكرون الأنساب إنكاراً علمياً تاريخياً يردون أصولها البعيدة وسلاسلها المحكمة إلى اليهود وما ورد فى التوراة من أنساب فلما قويت الصلة بينهم و بين العرب منذ الجاهلية ودخل فريق منهم فى الاسلام بعد ذلك ، وأراد العرب الاعتزاز بالأنساب وإحياء العصبيات قلدوا ما فى التوراة من سلاسل محكمة ونسجوا أنسابهم على مثالها فجاءت محكمة مفصلة دقيقة كأنها علم أصيل . ومن أسبق الدوافع إلى ذلك نظام العطاء الذى وضعه عمر بن الخطاب وجعل أساسه الأول القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبدأ بآل الرسول ، وقدم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم ، وقدم مضر على ربيعة لذلك ، وقريشاً على غيرهم وكان بنو هاشم مركز الدائرة ، ثم ما جدّ بعد ذلك من إحياء العصبيات القبلية ،

---

(١) راجع نيكلسن : التاريخ الأدبى للعرب ، وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ١٠ وذكرى أبى العلاء لطه حسين ص ١٣٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ — ١٤٥ مطبعة التقدم وتاريخ التمدن الاسلامى ج ٤ ص ١٧ — ٢٧ وابن الأثير ج ٦ ص ٤٧٦ طبع أوربة .

والجنسية ، والدينية مما يأتى بيانه ، فذلك قولهم فى إنكار الأنساب الجاهلية وما يتصل بها .

وهناك من يؤمن بقدر من هذه الأنساب عام إجمالى دون هذه البطون والفضائل الكثيرة المتشعبة ؛ فابن خلدون يروى أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين فى القفر من العرب ومن فى معناهم لما اختصوا به من شظف العيش فلا ينزع إليهم أحد من الأمم يساهمهم فى حالهم أو يأنس بهم « فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة ، واعتبر ذلك فى مُضر من قريش ، وكِنانة ، وثَقيف ، وبنى أسَد ، وهُذَيل ، ومن جاورهم من خُزَاعة لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع ، وبعدوا عن أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب ، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب ، وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفى معادن الخصب للمراعى والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطيىء وقضاعة وإياد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم ، ففى كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ماتعرف وربما جاءهم ذلك من قِبَل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب فى بيوتهم وشعوبهم وإنما هذا للعرب فقط »[1] . فابن خلدون يتكلم عن هذه الفترة الزمنية التى نتناولها ، ويفرق ، أولا ، بين العرب والعجم فى العناية بالأنساب ، ويميز ، ثانياً ، وبين المعنيين فى القفر والمقيمين فى الخصب من حيث سلامة الأنساب وصراحتها ، وهو بذلك يؤمن بقسط من النسب بين البادين . ويتقدم بعض الباحثين فيرى أن

---

(١) المقدمة ص ١٤٤

الأنساب كانت مجموعات كبرى كعرب الشمال وعرب الجنوب ، ومضر وربيعة ، وأن الروابط بين أفرادها لم تكن أبوة دموية عامة جامعة دائماً ، وإنما كانت محالفات ربطت بين جماعات عربية ، سميت فيما بعد باسم المكان الذى عاشت فيه أو باسم الزعيم الذى انطوت تحت لوائه دون أن ترجع هذه القبيلة كلها إلى أب واحد وأم واحدة (٢) . ومعنى هذا أننا نؤمن ببعض الأصول والفروع الكبرى ، أو التى وثقتها الروايات الصحيحة ، وعرفها العلماء المسلمون ، وأقاموا عليها أحكاماً شرعية أصيلة .

وهناك هذا الرأى العملى الذى يعنى رجال التاريخ الأدبى والسياسى وهو يسلم بأصول الأنساب وفروعها دون أن يقف طويلا عند هذه النظريات العلمية والحقائق التاريخية ، ويبرر إيمانه بأن الحياة الأدبية ، والسياسية ، والاجتماعية إنما جرت على اعتباو هذه الأنساب أموراً مقررة وكانت آثارها ، وحركاتها ، ثمرة لهذه السلاسل التى تمثل ما بين القبائل من وشائج القرابة أو بعيد الصلات ، فأنشىء الشعر ، وقامت الأيام ، وعقدت المحالفات ، وكانت المفاخرات والمنافرات على أساس هـذه الأنساب ، سواء ذلك فى الجاهلية والإسلام وفى أنحاء البلاد الاسلامية كلها .

ولا نستطيع تفسير المواقف القبلية وعصبياتها ، أو الآثار الأدبية واتجاهاتها دون الاعتراف بمـا قالت به العرب ، وأقامت عليه نشاطها ، وأنشأت فى ظله شعرها ونثرها ، وأذاعت مفاخرها ؛ وكونت أحزابهـــا ، حتى قال الأستاذ Nicholson : « يجب أن تقوم دراستنا على إيراد ما كان يعتقده العرب فذاك أولى من العناء فى نقد ما كانوا يعتقدون »(١) .

---

(١) Lit. Hist . of Arabs' p . XX نيكلسن

(٢) راجع مقدمة ميرجليوث لـكتاب الأنساب للسمعانى .

ذلك ما كان متصلا بالجاهلية ، وقد قامت الأيام ، ثم النقائض ، والحوادث على أساس ما اعتقده العرب أو أقروه ، فكانت أيام قحطان وعدنان ، وفى داخل كل منهما ، ونهض الشعر يسجل هذه الأيام و يتناقض حولها و يتخذ معانيه من ملابساتها حتى صارت الأنساب الجاهلية ، فى باب التاريخ الأدبى ، حقائق أدبيةً مقررة و إن أنكرها علم الأنساب .

ولما جاء الإسلام ، عنيت الشريعة بالأنساب انظام الزواج ، والميراث ، والوقف والرق وما إلى ذلك مما هو متصل بالشعائر الدينية المقدسة[١] ثم اتخذها عمر أساساً للعطاء[٢] ، وعنى الناس بأنسابهم من ذلك حتى جاء الأشراف وكونوا نقابتهم وجعلوا من أغراضها حفظ أنساب الأشراف والقيام على شئونهم والاحتفاظ بمكانتهم الدينية والاجتماعية و بذلك صار علم الأنساب محكم الأصـــول منظم الفروع إلى حد كبير[٣] .

ولـكن جانب العصبيات لم ينس الأنساب فى ظل الإسلام فاستغلها المهاجرون والأنصار ، واستغلتها القبائل فى حروب الردة ؛ وحذّر عمر اللعب بها فى الحياة الإسلامية، ولـكنها منذ عهد عثمان قوى شأنها حتى ذهبت بالخلافة الأولى، وتنوعت نزعاتها وصارت كوارث سياسية واجتماعية .

ولما نهض الأمويون اعتمدوا على العصبيات العربية المختلفة وكانت الأنساب أساس ذلك بين اليمن وعدنان ، و بين ربيعة ومضر ، و بين قيس وتميم ، و بين العرب والموالى ، و بين الأموية والهاشمية ، وعلى ذلك قام الشعراء يؤرثون العداوات ، و يلهبون

---

(١) سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب للبغدادى ، الباب الأول .

(٢) راجع فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٥٣ الطبعة الأولى .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٦٤ — ١٧١ وأنساب الأشراف للبلاذرى .

نارها بالفخر والهجاء ، وكان عصر النقائض النشيط الهام هو عصر الأمويين .

على أن هذه الأنساب لم تخل من الوضع والاضطراب فى العهد الإسلامى ؛ فقد رأينا الحطيئة يتردد بنسبة بين قبائل العرب وينتمى إلى كل واحدة منها إذا غضب على الآخرين ، فعل ذلك مع بنى عبس و بنى ذُهل ، وقال الأصمعى: « كان الحطيئة يضرب بنسبة إلى بكر بن وائل » وسأل أمه عن أبيه فخلطت عليه حتى عاش مغموز النسب[1] وكان الرجل يرى نسبه رقيقاً فينتسب إلى رجل لم يعقب ، كمن انتسب إلى أبى ذر ولم يعقب أو حسان بن ثابت وقد انقرض نسله ، وكرجل دخل على المأمون فأعجبه كلامه ، فسأله عن نسبه ، فانتسب إلى عدى بن حاتم الطائى لصلبه فعرف المأمون كذبه[2] ونشط الفرس بعد ذلك فى إلحاق أنسابهم بالعرب ووجدوا من النسابين عوناً لهم على اختلاق الأنساب كهشام بن الكلبى؛ فقد سأله خالد بن عبد الله القسرى عن جدته أم كُرَيز — وقد كانت بغياً لبنى أسد تدعى زينب — فقال له : هى زينب بنت عروة بن خذيمة بن نصر بن قعين فسر خالد بذلك ووصله[3] وقد طلب إليه أبو نواس أن يلحقه بمذحج وكشف بقوله عن هذه السنة التى استنها النسابون من خلق الأنساب فخاطب الكلبى بقوله :

أبا مُنذرٍ بابالُ أنسابِ مذحج ... مُغلّقةً دونى وأنتَ صديقى

فإن تعزُنى يأتك ثنائى ومدحتى ... وإن تأب لا يُسدد على طريقى

وقال أبو نواس فى الهيثم بن عدى :

الحمد للهِ هذا أعجب العجبِ ... الهيثمُ بنُ عَدِيٍّ صار فى العرب

وقال بشار :

---

(١) الأغانى جـ٢ ص١٥٧ (٢) المعارف لابن قتيبة ص٢

(٣) الأغانى جـ ١٩ ص٥٨ بولاق

إرفَق بِنِسبة عمرو حين تنسبُهُ فإنه عـربيٌّ من قوارير
ما زال فى كِير حَـدّاد يُرَدّدُه حتى بدا عَربياً مُظلمَ النور[1]

وروى صاحب الأغانى أن بعضهم تقدم إلى ابن الكلبى فى أن يخبر الناس عن دِعبلِ الشاعر أنه ليس من خزاعة ، فقال له : « يا فاعل ، مثل دعبل تنفيه خزاعة ؟ والله لو كان من غيرها لرغبت فيه حتى تدّعيه ، دعبل ، والله يا أخى ، خزاعة كلها »[2] وهكذا تعرضت بعض الأنساب للعبث والسخرية .

وكان النسب منذ الجاهليةُ من المغامز التى يهاجم بها الشعراء خصومهم حين يتركون أصولهم إلى غيرهم ، فقد قيل إن عاملة بن سبأ ولدت قبائل اليمن وهم قليل وزعم نساب مضر أنهم من ولد قاسط بن وائل قال الأعشى :

أعامل حتّى متى تذهبـــــينَ إلى غيرِ والدكِ الأكرمِ
ووالدُكم قاسِـط فارجعوا إلى النسبِ الأتلدِ الأقدم[3]

وفى الإسلام كانت المهاجاة والمناقضة تتخذ من النسب مادة بتحقيره أو التشكيك فيه ، أو نفى الشاعر عن قومه ، أو اعتباره فى رتبة وضيعة ، كذلك كان الفخر بالأنساب ومكانة الشاعر من قومه فيها أو قرابته إلى مثل قريش ، وضبّة ، وقيس وبيت الخلافة فى مُصْر وهكذا .

ذلك جانب مما يتصل بموضوعنا ، والجانب الآخر أن النقائض بين الشعراء قامت كثيراً على الأساس القبلى ؛ فكان لزاماً أن نُلِمّ بأنساب القبائل من هذا الوجه ولا سيما أنها كانت أساساً للأيام التى قيل فى سبيلها كثير من النقائض .

---

(١) ذكر أبى العلاء لطه حسين ص١٣٦ والأصنام ص١٧
(٢) الأغانى جـ ١٨ ص٤٧ بولاق .
(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٤٦ .

— ٢ —

وأيام العرب وقائعها ، وسميت بذلك لأن الحروب كانت نهاراً ، واليوم عندهم هو النهار ، من طلوع الشمس إلى غروبها[١] وقد أشرنا قبلا إلى مكانة الأيام فى الحياة الجاهلية وما أعقبت من أشعار ومناقضات[٢] ولكنا نخصها هنا بشىء من العناية .

الأيام جاهلية و إسلامية وأموية جرياً على تقسيمنا عصور النقائض وقد ذكر الميدانى فى مجمع الأمثال مائة واثنين وثلاثين يوماً جاهلياً ثم قال : « وهذا الفن لا ينقصاه الإحصاء فاقتصرت على ما ذكرت » . وأعقب ذلك بذكر ثمانين يوماً إسلامياً انتهت به إلى أيام المعتصم العباسى ، آخرها يوم (فَخّ) للعباسيين على الطالبيين ، ويقتصر الميدانى على ضبط الأسماء وبيان مسمياتها من جبل ، أو ماء ، أو بئر ، وذكر الغالب والمغلوب ، و إتباع ذلك أحياناً ببيت أو بيتين من الشعر قيلا فى اليوم لشاعر جاهلى أو إسلامى ، دون أن يسرد تاريخ الأيام .

ويظهر أن المصدر الأول لرواية أيام العرب هو كتاب مفصل لأبى عبيدة جمع فيه ألفاً ومائتى يوم ، وقيل إن له كتاباً آخر موجزاً تحدث فيه عن سبعة وخمسين يوماً وعن هذا الكتاب الأول أخذ سائر المؤلفين فى الأيام[٣] .

وقد أورد أبو عبيدة نفسه (توفى سنة ٢١٠ هـ ٨٢٥ م) فى شرح نقائض جرير والفرزدق جملة من هذه الأيام بحسب ورودها فى المناقضة بين هذين الشاعرين وقد بلغت ثمانية وثلاثين يوماً رئيسياً رتبها فى الفهرس ترتيباً هجائياً

---

(١) لسان العرب مادة يوم .

(٢) راجع فى أيام العرب : شرح نقائض جرير والفرزدق ، وتاريخ ابن الأثير ج ١ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ، ونهاية الأرب للنويرى من ٥ قسم ٤ ونقائض جرير ، والأخطل لأبى تمام ، والأغانى ، وشرح المفضليات لابن الأنبارى ، وشرح الحماسة للتبريزى ؛ ومعجم البلدان ، والعمدة لابن رشيق ج ٢ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية عدد ٣ مجلد ٣ من الترجمة العربية ص ١٨٢ .

ناشر النقائض الأستاذ « أنتونى أشلى بيفان » ذلك خلاف المغاورات الواردة أثناء الشرح ، ومعنى هذا أن شرح النقائض لم يستوعب أيام العرب و إن امتاز بتفصيل ما ذكر فيها ، ولم ترتب فيه ترتيباً تاريخياً ولا قبلياً . ونحو ذلك ما ورد فى نقائض جرير والأخطل لأبى تمام ، وكان أبو عبيدة مرجعها الأصيل .

أما أحمد بن عبد ربه ، فى كتابه العقد الفريد[1] فقد أورد الأيام الجاهلية مُصنّفة بحسب القبائل ، فذكر حروب قيس ، وحرب داحس والغبراء ، وحروب قيس وكنانة ، وأيام بكر وتميم ، وحرب البسوس ، وأيام الفجار ، مع ذكر جملة صالحة من الشعر والنثر المتصلين بهذه الأيام ، و بعض المشهورين من رجالاتها ؛ وهذه الطريقة تنفع مؤرخ القبائل العربية ومكانتها فى الناحية الحربية ، ولكنها تفقد الترتيب التاريخى ، فكثيراً ما يتقدم ذكر بعض الأيام على بعض . ولما بدأ الكلام بحروب قيس و بيوم (مَنعِج) لِغَنِيٍّ على عبس قال : « قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يوم مَنعج يقال له يوم الردهة » فمرجعه أبو عبيدة أيضاً . وهذا النظام انتفع به بعض العصريين لما كتبوا فى أيام العرب كجورجى زيدان ومحمد جاد المولى وصاحبيه .

ولكن ابن الأثير التوفى سنة ٦٣٠ هـ أورد أيام العرب فى الجاهلية[2] محاولا ترتيبها ترتيباً تاريخيا فتم له بعض ما حاول ، معتمداً على ما روى عن أبى عبيدة ، متحرياً الإيجاز ولا سيما حين يعرض النصوص الشعرية المتصلة بالأيام إما لشكه فى صحتها و إما لشدة عنايته بالجانب التاريخى ، وكتابه يعد من المصادر الهامة لهذه الدراسة المتصلة بالأيام .

---

(١) جـ ٣ ص ٤٣ المطبعة الشرقية ١٣١٦ هـ .

(٢) الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٣٦٧ — ٥١٧ طبع أوربة

وسائر المراجع اعتمدت على ما ذكرنا هنا إذ كانت هـذه أوفى المراجع فى هذا الباب .

أما عن أسباب هذه الأيام فقد أشرنا قبلا إلى أنها ترجع إلى عاملين : مادى وأدبى ، و إن كان مردها الأصيل هو سعة السلطان وكسب الاحترام وعزة الجانب أو توفير الحياة المرضـية للقبيل ، ومع ذلك فلنذكر هنا بعض الأسـباب المباشره لبعض الأيام توضيحاً لهذا الأصل العام .

من ذلك الطمعُ والرغبـةُ فى النهب والسبى كيوم (البَرَدان) حين انتهز زياد بن الهَبولة أمير الشام انشغال كِندة وربيعـة فى الإغارة على البحرين ، فغزا بلادهم وأخذ الحريمَ والأموالَ ، ولـكن حُجرا الـكندى أوقع به انتقاماً منه ، وهذا سبب مادى ناشىء عن عدم قيام نظام محترم لصلات القبائل فيما بينها .

ومنها الغضب للـكرامة والشرف ، كيوم (سَحْبَل) لما شنّع بنو عُقيل بجعفر ابن عُلبة لما عرض لنسائهم وكان من ذلك أحداث وثارات ، وكيوم (طِخفة) لما حاول المنـذر بن ماء السماء نقل الردافة من بنى يربوع إلى مُجاشـع ولـكن اليَربوعيين انتصروا واحتفظوا بالرِدافة فيهم .

ويكون مردها الوشايات والعوامل السياسية كما حدث بين شُرحبيل وسلمة ابنى الحارث الـكندى ، فكان من ذلك يوم (الـكُلاب) الأول ، وقد قوّى الشر بينهما المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة اشتفاء من والدهما الحارث فقد كان من عوامل إقصائه عن عرش الحيرة قبل ذلك .

وربما كان السبب الملاحاة والمِراء الذى يوغر الصدور ويثير الحفائظ . وذلك يوم (ذى طُلوح) الذى كان ثمرة الملاحاة بين أبجر بن جابر العِجلى و بين زوج أخته عُمَيرة بن طارق اليربوعى ، ومثله يوم (المرُّوت) الناشىء عن المفاخرة ونبش

الماضي بين قعنب بن الحارث اليربوعي و بجير العامري بعكاظ وفيه انتصرت تميم على عامر .

وكانت حماية الجار من أسباب (الأيام) فحرب (سُمَير) نشأت عن غضب مالك بن العجلان لكعب الثعلبي الذبياني جاره في المدينة ، وإن كان الأصل الأصيل هو الملاحاة والمفاخرة .

والثأر والانتقام كيوم (مُبايض) حين ثأرت شيبان من تميم لنفسها وكذلك يوم (مَنعج) وفيه ثأرت عبس لنفسها من غنى . وكان الغدر والعنف دافعاً إلى حروب داحس والغبراء .

ومن الدوافع رفع الضيم والتشبث بالحرية كيوم (خَزاز) نعد على مَذحِج ، ويوم (حُجر) لبني أسَدٍ على كِندة ، وحرب (البسوس) بين بكر وتغلب[1] .

ويلاحظ على سَيْر هذه (الأيام) أن الهزيمة كثيراً ما تحل بالعادي الظالم ، وقد يكون شيء من ذلك نتيجة للقصص الذي يساق للعظة والاعتبار ، وشيء منه طبعي إذ يكون المدافع الثائر لنفسه أقوى لاحتمائه بموطنه ، وأحمسَ لدفع العدوان وحماية الشرف ، وآبى للضيم والهوان ، وذلك كأيام : طسم وجديس والزباء وذي قار ، والصفقة ، والبَردان ، وحليمة ، وعين أُباغ ، و بُعاث ، وزَرود ، وذي طلوح وجَدود ، وظهر الدهناء ، والإياد ، والشباك ، واللوى ، والنقراوات ، وذي نجب وغيرها كثيرة .

وتكون الغلبة للعادي المهاجم للحق التاريخي أو لحبك القصص ، كحرب حاطب ، ويوم سحبل ، ويوم ثيتل ، ويوم الوقيط ، وجبلة ، ورحرحان .

ويلاحظ أنه في يوم أوارة الثاني كان أوله انتصار للغادر الظالم وآخره جزاء

---

(١) راجع كتاب الأيام التي أشرنا إليها سابقا لتعرف أخبار ما أوردناه هنا للاستشهاد .

الواشى . وفى يوم (فيف الريح) تساوت عامر ومذحج تقريباً ، والعجيب أن هذا اليوم كان محاولة من بنى عامر أن يأخذوا ثأرهم من بنى الحارث بن كعب ومعهم مذحج ، فهل كانت النتيجة طبعية إذا كان تساويهما يقابل تساوى الموقفين مادام ثأرا لدماء قديمة ؟ !

أما عن مواقف القبائل فى هذه الأيام فيلاحظ عدة أمور :

أولها : أنه فى أيام العرب والفرس — كالصفقة وذى قار — كانت هناك قبائل عربية فى جانب الفرس مما يدل على أن هذه القبائل تظفر بمزايا مادية من الفرس إذا كانوا غالبين ومن العرب إذا كانوا مغلوبين كما لهم سواد العراق وأخذهم العطايا والهبات ، كما يدل على أن الحرب بين الفرس والعرب لم تقع على أساس جنسى أو قومى ، ففى يوم الصفقة كان هوذة الحنفى والى اليمامة مع كسرى على تميم ، وفى يوم ذى قار كان فى صف كسرى النعمان بن زرعة زعيم تغلب والنمر ، وخالد بن يزيد البهرانى زعيم قضاعة و إياد ، و إياس بن قبيصة رأس العرب . . كل أولئك ضد بكر بن وائل .

وثانيهما : أن أيام قطحان فيها بينها تدخلت فيها العدنانية ، ففى قوم (البرَدان) كانت كِندة وربيعة فى صف حُجر ، وفى يوم (الكُلاب الأول) كانت قبائل معد بن عدنان قسمة بين أمراء كندة المتحاربين ، وفى (عين أباغ) كانت معد مع المنذر ، وفى يوم (حليمة) كانت أسرى من تميم معه فيهم شاس أخو علقمة ابن عبدة .

وثالثها : أن أيام القحطانية والعدنانية كانت أحياناً بين ملوك قطحان وقبائل عدنان لأن الآخرين كانوا يثورون على حكامهم اليمنيين إباء للضيم والهوان ، وكانت أحياناً بين القبائل كأيام : الكلاب الثانى ، وفيف الريح ، وظهر الدهناء .

ورابعها : أن سائر الأيام تنضم فيها بعض القبائل إلى قبائل بعيدة فى النسب على القريبة لحلف أو طمع ، وكنت ترى امتناع الرءوس عن مطاوعة أفراد وقبائل أخرى على العدوان فطيء رفضت أن تدخل النعمان جبلها خوف كسرى ، والحارث بن ظالم المرى لم يظفر بحماية حاجب بن زرارة من بنى جعفر مخافةَ الظلم وهناك رجال صلح معروفون كحرب بن أمية وعبيد الله بن جُدعان أيام الفجار ، وهرم بن سنان والحارث بن عوف فى داحس والغبراء .

أما عن الأيام نفسها ، فكانت ذات أوضاع شتى :

أولها : ما كان بين العرب والفرس كيومَى : الصفقة لكسرى على تميم ، وذى قار لبكر على العجم ، ويدل قصصها على جاه الفرس وضربهم العرب بعضهم ببعض وكيد زعماء العرب لبنى جنسهم فى بلاط الأكاسرة ، ورهبة فى نفوس العرب للفرس .

وثانيها : أيام القحطانيين فيما بينهم كحرب الأوس والخزرج وأيام البردان والكلاب الأول ، وعين أباغ ، وحليمة ، واليحاميم ، وكانت معرضا لأطماع الأمراء وعتوهم ، ولمظالم الأقربين وإحنهم ، وتعارك العرب فى سبيل غيرهم من الفرس والروم .

وثالثها : ما كان بين العدنانيين ، وكانت العدنانية تشهد هذه الأيام متفرقة ، وقيل إنها لم تجمع كلها فى الجاهلية إلا ثلاثة أيام فقط : هى يوم البيداء بين تهامة واليمن ، ويوم السلان بين اليمامة واليمن ، ويوم خزاز بين معد واليمن[1] وعدا ذلك أيام طخفه وأوارة ، وحجر ، والكلاب الثانى ، وفيف الريح وظهر الدهناء وعليها سمات الثورة ، والطموح إلى الحرية والاستقلال ، والنقمة على عسف الملوك .

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٦٦ وابن الاثير جـ ١ ص ٤ ص ٣٨٤ وأمثال الميدانى جـ ٢ ص ٢٢٦ والعرب قبل الإسلام ص ٢٢٤

رابعها : أيام العدنانية فيما بينها ، وهذه كانت النظام السائد الكثير الفروع والمشاهد ، كانت فى ربيعة كحرب البسوس بين بكر وتغلب . وكانت بين ربيعة وتميم كأيام الوقيط ، وذى طُلوح ، والإباد ، وعاقل والوقبى ، وكانت فى قيس كأيام : سَنِعج ، وداحِس والغبراء والرقم ، واللوى ، وهَراميت ، وبين قيس وكنانة كالكديد ، وبَرْزَة ، والفِجار ، وبين قيس وتميم ، كأيام رَحرَحان ، وشعب جبَلة ، وذى نَجب ، والصَّرائم والمرُّوت ، وبين ضبَّة وغيرهم كالنسار ، والشقيقة ، وبُزاخة ، ودارة مأسِل ، والنقيعة وغير ذلك .

ولكن ما الفاصل بين الجاهلية والإسلام فى هذه الأيام ؟

لا يمكن جعل ميلاد الرسول عليه السلام حداً فاصلا بين العهدين لأن ميلاده كان أثناء الجاهلية ولم يغير شيئاً من النظم والتقاليد القائمة فبقيت سائرة فى طريقها الرتيب حتى زمن البعثة ، على أن الرسول عليه السلام اشترك فى بعض أيام العرب قبل الإسلام حينما كان يناول أعمامه النبل يوم عكاظ من حروب الفِجار الثانى .

ولا يمكن عدُّ البَعثة المحمدية ذلك الحدَّ ، لأن الرسول بقى فى مكة يدعو قومه وهم عنه معرضون وقلَّ مَن آمن به ، وكانت الكثرة العربية فى غيّها تعيش فى الصحراء عيشتها الجاهلة السفيهة لم تغير شيئاً من سلوكها ، ولم تقف أيامها فيما بينها .

كذلك لا يمكن جعلُ الهجرة حداً حاسماً بين الأيام الجاهلية والإسلامية ، فبعد الهجرة بدأت الأيام الإسلامية حقاً كأيام بدر ، وأُحد ، والخندق وغيرها ، ولكن بجانب هذه كانت الأيام الجاهلية قائمةً فى أرجاء الجزيرة العربية خاضعة فى أسبابها ، وغاياتها ، ونظمها للروح الجاهلى القديم ، فمن أيام العرب بعد البعثة يوم ذى قار بين الفرس وبنى بكر ، ويوم الشيِّطَّين لبكر على تميم ، ويوم فَيف الريح لمذحج على عامر .

ذلك من وجه ، ومن وجه آخر نجد أياماً متأخرة عن صدر الإسلام أى فى عهد الأمويين ، وكانت أياماً جاهلية فى روحها وأحداثها ، وإن اتصلت أسبابها بالحياة الإسلامية السياسية والدينية ، كحروب قيس وتغلب ، ولا يمكن عدها إلا أياماً إسلامية لذلك.

والرأى ، عندى ، أن كلّ يوم كان بعيداً عن تأثير الإسلام وتياراته ، ولو بعد ظهوره ، فهو جاهلى كأيام : الوقبى ، وهراميت ، والشيطين ، وذى قار ، وكل يوم متأثر بروح الإسلام وحياته ونظمه فهو إسلامى مهما يكن شيئاً كيوم البشر ، ويوم الحشاك ونحوهما .

وتختلف الروايات فى قصّ (الأيام) سواء فى الأسباب والنتائج والملابسات الجزئية ؛ من ذلك الخلاف فيمن قطع السلسلة يوم (المشقّر) : أهو خيبرى بن عُبادة أم عُبيد بن وَهب من تميم ؟ وفى يوم (ذى قار) : من أجار النعمان ، أهو هانىء بنُ مسعود أم هانىء بن قبيصة ؟ وكيف قتل النعمان ، أبا الطاعون أم تحت أرجل الفيلة ؟ وصاحب الغرّيين مَن هو ؟ النعمان بن المنذر على قبرَى ندبمة أم الحارث الأعرج على قبرى ابنيه ؟ وماسبب يوم (خَزاز) أهو عدوان سلمة الكندى على نزار أم أسرى مضر عند أحد ملوك اليمن ؟ ومثل هذا الاختلاف طبعى لعدم تقييد هذه الأخبار قديماً ، ولتأخر عهد التدوين ، ولتأثير العصبيات فى ذلك .

على أننا نجد سمات الفن القصصى شائعة فيما روى حول (الأيام) فحرب البسوس قصة حماسية والتعقيد واضح فى أيام داحس والغبراء . وأما قصة طسم وجديس فتمثّل الصراع بين الجبروت الملكى والثورة فى سبيل العرض والكرامة وتبع ذلك أنك تجد فى غضون هذا القصص شعراً موضوعاً ، ورجزاً وشعراً أصيلا يلقاك شىء منه فى الفصل التالى . ومن أدلة الوضع ما قال أبو عبيدة : « حدثنى المنتجع بن نبهان قال : وقف رؤبة بن العجاج على التيم بمسجد الحرورية ، فقال :

يا معشر تيم ، إنى سمرت عند الأمير تلك الليلة ، فتذاكرنا يوم الكلاب.
— الثانى — فقال : يا معشر تيم إن الكلاب ليس كما ذكرتم فأعفونا من قصيدتى صاحبينا يعنى عبدَ يغوث ووعلةَ الجرمى ومن قصيدة ابن المكعبر صاحبكم وهاتوا غير ذلك فأنتم أكثر الناس كلاما وهجاء ، قال رؤبة : فأنشدناه فى ذلك اليوم شعراً كثيراً فجعل يقول هذه إسلامية كلها »[1] .

وقد مثل القصص كثيراً من شمائل العرب ومزاياهم ، ففيه تدابير الحرب ضد الفرس ، والعصبية للجنس أحياناً ، والتجسس والاحتيال لنفع القبيل وعصبية المرأة لأهلها والانتحار خوف المثلة والالتجاء إلى الأصنام والكهان ، كما تجد فى حروب الفجار ميلا إلى المصالحة وخلقاً كريماً وميلا إلى العدالة واحتراماً لمكة وقريش ، وقصر الحروب وسهولة الشعر .

وإذا كانت الأيام تحتاج إلى دراسة خاصة دقيقة فحسبُنا هنا هذا الإيجاز لنشير إلى أن أكثر النقائض الجاهلية إنما قيلت فى ظل هذه الأيام وتحت ألويتها كما يمر بك فى الصفحات التالية .

— ٣ —

وهناك معرض آخر للنقائض أومقوّم من مقوّماتها وأصل من أصولها العامة، ذلك هو الحياة الاجتماعية الجاهلية وما جرت عليه من أوضاع ، ففى سبيل هذه الأوضاع العرفية والعادات المرعية أنشى قسم من النقائض لأن هذه الأصول لم تراع فخرج عليها الناس أوقصروا فيما تستدعى من سلوك فقام الشعر يثور لها أوعليها وبذلك كان الحوار والملاحاة ؛ كانت العرب تحب الحروب وتعدها مجال الفروسية ، وامتحان المواهب السامية ، فكان الفرار منها جبنا وعاراً ، وكانوا يحبون الحرية

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٧٢ المطبعة الشرقية .

وينفرون من الضيم مهما يلق الفرد فى ذلك من نفى وتشريد ، وكانت المرأة ملمس العفة ومغمز الكرامة والشرف فدخلت النقائض فى فن النسيب ، وكان وأد البنات موضوع جدال بين العرب والفرس فيما بعد ، كما كان منعه مفخرة من مفاخر آباء الفرزدق أوجده صعصعة خاصة ، كذلك كانت السيادة والنجدة والكرم والغنى من أسباب المجد الذى يفخر به الشاعر ويهجو خصمه بفقده ، وكان العربى الأصيل يتسامى على الدخيل والرقيق ، ويعد نفسه أرفع منه مكانة وأمجد أصلا ، كذلك كان تجويد الشعر من موضوعات النقائض فخرت به مدرسة الحطيئة وكعب بن زهير فاعترضتها مدرسة مُزَرِّد أخو الشمّاخ ، كذلك كان الحلم والوفاء والحزم من الفضائل التى يتجاذبها المتناقضون ، وكان اتصال الشعراء لرؤساء بالأكاسرة أوالمناذرة والغساسنة من الميزات التى يتعاظم بها الشاعر ورهطه ، ذلك غير امتياز بعض القبائل بمكانة كقريش ، وقيس عَيلان ، ومضر عامة .

هذه التقاليد الاجتماعية كانت مقياس الاعتدال والإنصاف وصحة السلوك واحترام القبيل فكان الشاعر يدعى لنفسه ولقومه التمسك بها ويرمى خصمه بالإعراض عنها وإغفال أمرها ، وقد رأينا أن شاعراً ، هو قُريط بن أُنيف ، يهجو قومه بأنهم أخيار يخشون الله ويقابلون الشر بالخير ويتمنى لو كانوا عادين ظالمين ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً تبعاً لتقاليد الجاهليين .

معنى ذلك أن النقائض الجاهلية عاشت فى ظل الأيام أولا ، والتقاليد الاجتماعية ثانياً ، وذلك ما نعرضه فى الفصول الآتية :

الفصل الثالث

النقائض والأيام القحطانية

— ١ —

إذا جاوزنا ذلك القصصَ الأسطوريَّ المتصل بالعرب البائدة والذى ذكرناه فى الفصل الأول متصلا بطسم وجديس ، فإننا نصل إلى العرب القحطانية ما دمنا خاضعين فى هـذه الدراسة لسلسلة الأنساب كما رواها النسابون ووصلوها بالتاريخ الأدبى ، والسياسى ، والاجتماعى ، وإذا كانت الأيام ، كما قدمنا ، أهم معرِض للمناقضة بين الشعراء آثرنا أن نقدّمها فى الذكر وما اتصل بها من هـذا الفن ؛ وآثرنا أن نقدّم منها ما كان متصلا بالقحطانية سـواء أكانت أياماً داخلية بين قبائل قحطان أم أياماً خارجية بينها وبين قبائل عدنان ، إذ كان الجانب القحطانى فيها هو السائد الغالب إما بكثرة عدده وآثاره الشعرية ، وإما بكون السلطان القحطانى متغلباً ذا أثر قوى فى سـير حوادثها وجليل آثارها ونتائجها . وسنقتصر هنا على الأيام التى وردت فى أخبارها نصوص المناقضة بين الشعراء .

وقد أشرنا فى الفصـل الأول إلى ما كان من حوار بين سلمة بن الحارث الـكندى وبين أبى حنش البكرى حول قتل شرحبيل بن الحارث الـكندى يوم الـكلاب الأول ، وإلى ما دار من المناقضة بين امرىء القيس وعبيـــد بن الأبرص الأسدى حول مقتل حجر الـكندى والد امرىء القيس فلا نعيد ذكره هنا وإنما نشير إلى ما روى أنه جرى بين امرىء القيس وشهاب وعاصم اليربوعيين ، قال امرؤ القيس فيهما : —

أبلغ شهاباً ، بل فأبلغ عاصما هل قد أتاكَ الخبرُ مالِ
أنّا تركنا منكمُ قتلى وجَرْ حَى وسبايا كالسعالِي
يمشين فى أرجلنا مُعترفا تٍ بجوع وهُزَالِ

فرد عليه شهاب بقوله : —

لم تسبنا خيلُكم فيما مضى حتى استفدْنا الحىَّ من أهلٍ ومالِ
ذاك ، وكم كِندّية سوداء قد تستقبل القومَ بوجه كالجمالِ
فأيقظننا يأكلن فينا عفرًا نُطعمُها قِدًّا ومحروثَ الحِمَالِ
أيامَ صبحنا كمُ مَلمومةً كأنها قد نُطّقتْ مِن حَرمِ آلِ
مِن كل قبّاء بعدوِ الوَكرَى إذا توانى الخيلُ بالقومِ الثِقالِ[1]

فإذا صح هذا الشعر ألقى ضوءا على نص آخر هجا فيه امرؤ القيس البراجم من بنى تميم ، ويربوعا ، ودارما ، لأنهم تخاذلوا فى الدفاع عن شرحبيل عم امرىء القيس حتى قتل يوم الكُلاب الأول بيد أبى حَنَش التغلبى ، وأوله : —

ألا قبّح اللهُ البراجِمَ كُلّها وجدّعَ يَربوعا وعفّر دارِما[2]

وقد جمعت المناقضة بين فنى الفخر والهجاء ، ووحدة البحر والقافية ، وتقابل المعانى فقد أنكر الثانى على الأول فخره ، وقابل هجاءه بنظيره . وكان الكلاب الأول لسلمة بن الحارث على أخيه شرحبيل[3] ولشعراء الجاهلية والاسلام شعر كثير فيه ، منهم السفاح التغلبى ، واللحّام التغلبى ، وجابر بن حُنَىّ ، وفيه يقول الأخطل لجرير : —

أبنى كُلَيب إن عَمّىَّ اللذا قتلا الملوكَ وفكّكا الأغلالا

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٠٤ ط السندوبى .
(٢) المصدر السابق ص ١٨٦ عن البراجم .
(٣) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٤٥٢ — ٤٦١ .

وأخوها السَّفَّاح ظَمَّأ خيلَه حتى وردْنَ جبَى الكُلاب نِهالا[1]

وأما يوم الكلاب الثانى فكان تميم على مذحج وأحلافها[2] وفيه كانت المناقضة الرجزية السابقة وشعر موضوع كثير[3] .

ونتقدم فنجد من شعراء طيء زيدَ الخيل النبهانى الشاعر الفارس المغوار المخضرم غزا فى الجاهلية بنى عامر وفيهم غَنِيّ وأخواتهم الطُّفاوة فهزمهم واستحرّ القتل بغَنى وفيهم يومئذ شعراء وفرسان فملأت طيء أيديهم من الغنائم وأسر زيد يومئذ الحطيئة فجز ناصيته وأطلقه ، وقال زيد فى وقعته ببنى عامر قصيدته التى يقول فيها : —

وخَيبةٍ من يُغير على غَنِيٍّ وباهلةَ بن أعصُر والكلابِ

ثم إن غنياً تجمعت بعد ذلك مع لِفٍّ من بنى عامر فغزوا طيئاً فى أرضهم فغنموا وقتلوا وأدركوا ثأرهم منهم ، وعلى ذلك أجاب طُفيل الغنوى زيداً فقال :ـ

سَمونا بالجيادِ إلى أعادٍ مُغاورةً بجِدٍّ واعتصابِ

نؤمُّهمُ على رُعب وشحطٍ بِقُود يطَّلِعن من النقابِ

وهى طويلة منها : —

أخذنا بالمخَطَّم مَن أتاهم من السُّودِ المزَنَّمَةِ الرِّغابِ

وقتَّلنا سَراتهم جِهـارا وجئنا بالسبايا والنِّهابِ

سبايا طيء أبْرِزْنَ قَسرا وأُبدِلْنَ القصورَ من الشِعابِ

سَبَايا طيء مِن كل حَيٍّ بِمن فى الفَرع منها والنِصَابِ

---

(١) عماه كليب ومهلهل أو عمرو بن كلثوم وأبو حنش راجع نقائض جرير والأخطل ص ٧٣.

(٢) النقائض ص ١٧٣ والعقد الفريد جـ ٣ ص ٧٠ .

(٣) العقد الفريد جـ ٣ ص ٧٠

وما كانت بناتُهم سَبِيًّا ولا رَغَبًا يُعَدُّ مِن الرِغابِ
ولا كانتْ دماؤهمُ وفاءً لنا فيما يُعَدُّ مِن العِقابِ[1]

وقد مضى فى الفصل الأول ما كان من ملاحاة بين زيد الخيل وعامر بن الطفيل فى مقتل (دؤاب) الطائى ، وكانت مناقضةً لولا اختلاف القافية .

وحدث مرة أن أغارت هوازن (من قيس عيلان) على خُزاعة (من كهلان) وهم بالمحصَّب مِن مِنًى ، فأوقعوا ببطن منهم يقال لهم بنو العنقاء ، وبقوم من بنى ضَياطر فقتلوا منهم عبـداً ، وعَوفاً ، وأقرمَ ، وغُبشان ، فقال الأحبُّ العَدوانى من قيس مفتخراً بذلك : —

غداةَ التقينا بالمحصَّبِ من مِنًى فلاقتْ بنو العنقاء إحدى العظائمِ
تركنا بها عوفاً وعبداً وأقرما وغُبشانَ سُؤراً للنسور القشاعِمِ

فأجابه قيس بن منقذ الشلولى : —

فخرتَ بيومٍ لم يكن لك فخرهُ أحاديث طسم ، إنما أنت حالِمُ
تُفاخر قوماً أطردتكَ رماحهم أكعبُ بنَ عمرو،هل يُجابُ البهائم؟
فلو شهدتْ أمَّ الصَبِيَّيْنِ حملَنَا وركضُهمُ لا بيَضَّ منها المقادم
غَداةَ تولَّيتُم وأدبر جمعُكم وأبْنَا بِأسراكم كأنَّا ضَراغِمُ[1]

فقيس ينكر على صاحبه انتصاره ، وفخره ، ويثبت عكسهما له ولقومه ، مع وحدة البحر ، والروى ، وإن اختلفت حركة الروى .

— ٢ —

ولعل أهمَّ نقائض القحطانية مادارت حول أيام الأوس والخزرج إذ كانت أيامهم من أشهر حروب الجاهلية ولا سيما أنها اقترنت بذكر جماعة من كبار

(١) الأغانى جـ ١٢ ص ٤ بولاق

الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، من العرب واليهود .

والأوس والخزرج قبيلتان من أزد كهلان اليمانية ، رحلتا من الجنوب ، بعد سيل العرم واستقرتا أول الأمر عند يثرب ، وكانت هذه مقر اليهود — من بنى قُرَيظة ، والنَضِيرة ، وبنى قينُقاع ، وبنى ماسلة ، ورَعُورا وغيرهم — وقد بنوا لهم حصونا يجتمعون فيها إذا خافوا ، فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتنوا المساكن والحصون إلا أن الغلبة والحكم لليهود الذين نزحوا إلى يثرب هاربين من الشام أمام الروم ، وكان نزول الأوس والخزرج بِصِرار — ماء على ثلاثة أميال من يثرب — نزلوا فى جهد وضيق فى المعاش ليسوا بأصحاب إبل ولا شاة ، لأن المدينة ليست بلاد نَعَم ، وليسوا بأصحاب نخل ولا زرع ، وليس للرجل منهم إلا الأعذاق اليسيرة يستخرجها من الأرض الموات ، والأموالُ لليهود[1] . وهنا يحكى ابن الأثير قصة لملك اليهود (الفِطْيَون) وأنه كان يسلك مع اليهود — وقيل بالأوس والخزرج أيضاً — ما كان يسلك ملك طسم بنساء جديس حتى أتى دور أخت مالك بن العجلان ، فأثارت أخاها مالكا فقتل (الفِطْيَون) وفرّ إلى الشام يستنجد الغساسنة ، ولكن الأغانى فى روايته يصل مباشرة إلى وفود مالك هذا إلى أبى جُبيلة الغسانى الذى يسأله عن قومه فيصف له نكد عيشهم فيأتى أبو جُبيلة إلى المدينة ويقتل زعماء اليهود ويمكّن للأوس والخزرج فى المدينة ، ويعيش هؤلاء معاً فى سلم وأمن إلى أن كانت حرب (سُمَير) أولى حروبهم وفاتحة البأس بينهم حتى جاء الإسلام فختم ذلك النضال وأحل محله الوئام والسلام .

وقبل المضى فى ذكر أيام الأوس والخزرج نشير إلى جماعة من شعراء اليهود لما كان لبعضهم صلة بشعراء النقائض أو مشاركة فيها وفى أيامها ، منهم أوس بن

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٩١؛ ومهذب الأغانى ج ١ ص ١٠٧

دُنَيّ القرَظى ، والسموءل بن عاديا ، وأبو الزِناد ، وكعب بن الأشرف من بنى النَضير وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره فى حروب الأوس والخزرج ، والربيع ابن أبى الحقيق من قُريظة وكان أحد الرؤساء يوم (بُعاث) حليفاً للخزرج هو وقومه[١] .

ونذكر هنا من أيام الأوس والخزرج ما كان معرضاً للمناقضة متحرين الإيجاز قدر المستطاع[٢] .

وأول هذه الأيام يوم (سُمَير) للأوس على الخزرج ، وسببه أن سميرا الأوسى قتل ضيفاً من بنى ذبيان يدعى كعباً الثعلبى كان نزيلا على مالك بن العجلان الخزرجى فى خبر طويل فتحارب الحيان ، وقبل الحرب أبت بنو الحارث بن الخزرج أن تنصر مالكا فقال يذكر ذلك ويشير إلى حدب بنى عمرو بن عوف على سمير ، ويحرض بنى النجار على نصرته من أبيات : —

إن سميراً ، أرى عشيرتَه قد حدَبوا دونه وقد أنِفوا
إن يكن الظن صادقاً ببنى النجَّارِ لا يطعموا الذى عُلِفوا[٣]
لا يُسلمونا لمعشر أبداً ما دام مِنّا ببطنها شَرَف

وقال دِرهم بن زَيد أخو سُمير فى ذلك : —

يا قومُ لا تقتُلوا سُميراً فإنّ القتلَ فيه البَوارُ والأسفُ
إنْ تقتلوهُ ترِنَّ نِسوتُكم على كريم ويَفزعُ السَّلَفُ[٤]
إنى لعمرُ الذى يَحجُّ له النـاسُ ومِن دُونِ بيتهِ سَرِفُ

---

(١) راجع تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ٨٦ والأغانى وابن سلام
(٢) راجع فى هذه الأيام ابن الأثير جـ ١ ص ٤٦١ وما بعدها والأغانى جـ ٣ ص ١٨ ، دار الكتب ، والعرب قبل الإسلام ص ٢٥٠ وأيام العرب فى الجاهلية ص ٦٢
(٣) أى لايقبلون الضيم اذا امتحنوا به . (٤) ترن : يرفعن أصواتهن بالبكاء .

يمينُ برٍّ بالله مُجتهدٍ يَحلِفُ إن كان ينفع الحَلِفُ
لا نرفعُ العبدَ فوقَ سُنَّتِهِ ما دام منا ببطنها شَرَفُ
إنك لاقٍ غداً غُواة بنى عَمِّى فانظرْ ما أنت مُزدهِفُ[1]
فأبدِ سِيماكَ يعرفون كما يُبدون سيماهُم فتعترِف[2]

وقال درهمٌ فى ذلك أيضاً : —

يا مالِ لا تبغِيَنْ ظُلامتَنا يامالِ ، إنَّا لمعشَرٌ أُنُفُ
يا مالِ والحقُّ إن قَنِعتَ به فيه وفينا لأمرنا نَصَفُ
إن بَجَيرا عبدٌ فخُذ ثمناً فالحق يُوفَى به ويُعترَفُ
ثم اعلَمَنْ إن أردت ضَيم بنى زَيدٍ ، فإنى ومَن له الحَلِفُ
لأصبَحَنْ دارَكم بذى لَجبٍ جَونٍ له مِن أمامِه عَزِفُ[3]
البَيضُ حِصنٌ لهم إذا فزِعوا وسابغاتٌ كأنها النطَفُ
والبِيضُ قد ثُلِّمت مضارِبُها بها نفوسُ الكُماةِ تُختطَفُ
كأنها فى الأكف إذ لمَعتْ وميضُ بَرقٍ يبدو وينكسِفُ

فأبيات مالكِ بن العجلان تتضمن غِبطةَ سُمير على نصر قومه له ، ورجاء بَنِى النجار أن ينصروه هو ، وخِلاف بنى الحارث بن الخزرج عليه، واتهام كل من بنى جَحْجَبَى و بنى زيد الآخر بقتل حليف مالك الذى أبى أن يقبل فيه دية الحليف ، وهى نصفُ دية الأصيل ، ثم شجاعة هذين الزهطين من الأوس .

وقد ردّ عليه درهم أولا ، بأن قتل سُمير بحليف مالك يعقب شراً كثيراً ،

---

(١) مزدهف : مقدم عليه من الشر .

(٢) كان مالك بن العجلان إذا شهد الحرب غير لباسه وتنكر لئلا يعرف فيقصده

(٣) عزف : صوت .

ويقسم أنه لا يضع الحليف فى مكانة الأصيل ، ويهدّده بما يلقى من الأوس ، فلم يلتقيا إلا فى مسألة الدية ، وكان رد درهم أقوى لاشتماله على التهديد والوعيد .

ثم ردّ عليه ثانياً بنصحه ومحاولة إرجاعه إلى الهدى والرشاد ، وبتهديده بحرب طاحنة إن لم يلزم جادّة الصواب ، وكان درهم يرد على سلوك مالك وآرائه الواردة فى سياق القصص النثرى أكثر من ردّه على شعره .

وكأن هذه الملاحاة الشعرية لما بقيت مَرويّة أثارت فى نفسى شاعرين تأخرت بهما الأيام فلم يدركا هذا اليوم ، حماسةَ فتناقضا حوله من الوزن والقافية نفسهما، هما قيس بن الخطيم الأوسى وحسان بن ثابت الخزرجى ، فقال قيس بن الخطيم قصيدته المشهورة :

ردّ الخليطُ الجِمالَ فانصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وقفوا

وهى طويلة يقول فيها بعد النسيب مما يتصل بهذا اليوم : —

أبلِغْ بنى جَحْجَبَى وإخوتَهم زَيداً بأنّا وراءهم أُنُفُ
وأننا دُون ما يسومهم الـ أعداء مِن ضَيمِ خُطةٍ نُكفُ
نَفْلى بِحَدّ الصفيح هامَهمُ وفَلْيُنا هامَهم بها جَنَفُ
إنّ بنى عَمِّنا طغَوا وبغَوا ولَجَّ منهمْ فى قومهم سَرَفُ[1]

فرد عليه حسان بن ثابت بقصيدته التى مطلعها : —

ما بالَ عَيْنى دُموعها تَكِفُ من ذِكر خَودٍ شَطّت بها قَذَفُ

وبعد نسيب وفخر قصيرين يقول فيما يتصل بالموضوع من أبيات : —

بَلِّغ عَنى النبيتَ قافيةً تُذِلهمْ ، إنّهم لنا حَلفوا[2]
باللهِ جُهداً لنقتلَنكُمُ قتلا عنيفاً والخيلُ تنكشِفُ
أو نَدْعُ فى الأوس دَعوة هرَبًا وقد بدا فى الكتيبة النَصَفُ

---

(١) الديوان ص ١٦ طبع أوربة والأغانى جـ٣ ص٢٣ دار الكتب مع اختلاف فى الروايتين .
(٢) النبيت بطن من الأوس .

كُنتم عَبيداً لنا نُخَوِّلكمْ ... مَن جاءنا والعبيدُ تُضطَعفُ[١]

كيف تَعاطَونَ مَجدنا سفها ... وأنتم دِعوةٌ لها وَكَفُ[٢]

هَلاّ غضبتُم لأعبد قُتِلوا ... يوم (بُعاثٍ) أظلّهم ظَلَفُ[٣]

نقتلهم والسيوف تأخذهم ... أخذاً عنيفاً وأنتمُ كُشفُ[٤]

إنّ سُميراً عَبدٌ طغى سَفَهاً ... ساعدَهُ أعبُدٌ لهم نَطَفُ[٥]

معانى قيس قائمة على الحماسة ، والوعيد ، والهجاء بالبغى ، والطغيان ، والإسراف فى التجنى ومجاوزة الحد ، فرد عليه حسان ساخراً من وعيده ، مفتخراً بقومه ، هاجياً خصومه بأنهم دونهم فى الشرف ، ذاكراً من قتلوا منهم يوم (بُعاث) رامياً سميراً وقومه بالطغيان والسفاهة والطيش ، فسلك فى نقضه مسالك القلب ، والموازنة ، وزاد الهجاء بأن خصومه خوّل خدام فتحققت المناقضة و إن كان سببها قديماً .ومَن يدرى فلعل المناقضة الأولى من وَحْى الثانية ومن آثارها فوضعت وضعا.

ويلاحظ أن موقف الخزرج كان ضعيفاً فى الماضى ، عملياً بالهزيمة فى هذا اليوم ، وأدبيا بشعر مالك بن العجلان ، ولكنه اكتسب قوة أدبية أخيراً لما تناوله حسان ، على أن المناقضة هنالم تخل من شعور القربى والأسف على تخطيها .

ومن أيامهم حرب كعب بن عمرو ، للخزرج على الأوس ، وذاك أن كعب بن عمرو المازنى الخزرجى تزوج امرأة من بنى سالم من الخزرج ، وكان يختلف إليها ، فقصد له رهط من بنى جَحْجَبى من الأوس بمرصدٍ فضربوه حتى قتلوه

---

(١) نخولكم نجعلكم خدما . تضطعف من الضعف .

(٢) دعوة منهم نسبه والوكف العيب والنقص . (٣) ظلف : شدة .

(٤) كشف : منهزمون . (٥) نطف : قرط . راجع ديوان حسان ص ١٨٣ طبعة البرقوقى .

أو كادوا ، فلما بلغ ذلك أخاه عاصمَ بن عمرو خرج ، وخوج معه بنوا النجار ، وآذنَ بنى جحجبى بحرب فتلاقوا بالرُحابة ، حصن بالمدينـة ، واقتتلوا قتالا شديداً وانهزمت بنو جحجبى ، وكان معهم أحيحةُ بن الجُلاح الأوسى ، فطلبه عاصم فأدركه وقد دخل حصنه فرماه بسهم فوقع فى باب الحصن ورجع عاصم وأصحابه ومكثوا أياماً ، ثم إن عاصما طلب أحيحة ليلا ليقتله فى داره ، و بلغ أحيحة ذلك فقال : —

نُبِّئتُ أنك جئتَ تسـ ـرى بين دارى والقُبابَهْ
فلقد وجدت بجانب الضَّحْـ ـيان شباناً مُهابه
فِتيانَ حرب فى الحديـ ـد وشامرين كأسدِ غابهْ
هُمْ نكّبوك عن الطريـ ـقِ فبت تركبُ كل لابه
أعُصيمُ لا تجزع فإن الحـ ـربَ ليست بالدُعابه
فأنا الذى الذى صبَّحتكم بالقومِ إذ دخلوا الرُحابه
وقتلتُ كعباً قبلها وعلوتُ بالسيفِ الذُؤابه

و بلغ عاصما قوله فأجابه : —

أبلغ أُحيحةَ إن عرضْـ ـتَ بدارهِ عَنِّى جَوابه
وأنا الذى أعجلتُهُ عن مَقعد أُلهى كِلابَه
ورميتُه سَهماً فأخـ ـطأه وأغلق ثَمَّ بابه[1]

تناول الرد معنى هجوم عاصم على خصمه بالسهم و إخطائه ، فعلله أحيحة بخوف عاصم شبابَ الأوس وفسره عاصم بفرار أحيحة واحتمائه بحصنه ، ولم أجد

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٤٩٥ طبع اوربة .

للآن سائر قطعة عاصم التى تتصل بالحرب . ودارت المناقضة هنا بطريقة التوجيه ، فكل فسر الحادث بوجه يلائم موقفه .

ثم حرب السَرارة ، يوم عضَّ الحيّين جميعاً شَرُّه ، وذلك أن رجلا من بنى الحارث بن الخزرج لقى رجلا من الأوس خارجاً من بئر أريس — بئر معروفة قريبة من مسجد قُباء عند المدينة — من عند ظئر له[1] ومع الخزرجى نبل له فرماه الخزرجى فقتله ، فلما بلغ قومَه قتلُ صاحبهم خرجوا إلى الذى قتل صاحبهم ليلا فقتلوه بَياتاً[2] وكان لايقتل رجل فى داره ولا فى نخله ، فرأت الخزرج مقتل صاحبهم ، فقالوا : والله ماقتل صاحبنا إلا الأوس ، فخرجوا ، وخرجت الأوس فالتقوا بالسَرارة[3] فاقتتلوا بها أربعاً حتى نال كل فريق من صاحبه فقال قيس ابن الخطيم فى ذلك : —

تَروحُ مِن الحسناء أم أنت مُغتَدى ... وكيف انطلاقُ عاشقٍ لم يُزَوَّدِ

ومنها بعد النسيب :

ألا إن بَيْنَ الشَرعَبِيّ وراتجٍ ... ضراباً كتخدام السَيال المعَضَّدِ

لها حائطان ، الموتُ أسفلَ منهما ... وجمعٌ متى يصرُخ بيثربَ يُصعِدِ

تَرى اللابةَ السوداءَ يحمرُّ لونها ... ويَغبرُّ منها كلُّ رَبع وفَدفَدِ

ويستمر مفتخراً بخلقه ملماً بشىء من الحكم وينهى قصيدته بقوله : —

فمن مُبلغٌ عنى شريدَ بنَ جابرٍ ... رسولا إذا ما جاءه وابنَ مَرثَدِ

فأقسمتُ لا أُعطى يزيد رَهينةً ... سِوى السيف حتى لاتنوء له يدى

فلا يُبعدَنكَ اللهُ عبدُ بنَ نافذٍ ... ومن يعلُهُ رُكن من التُربِ يبعَدِ

---

(١) الظئر المرضعة ولد غيرها . (٢) قتله بياتا : أى بالليل بغتة .
(٣) وسط الوادى .

فرد عليه حسان بن ثابت بقوله :

لعمرُ أبيك الخيرِ ياشَعثُ ما نبا ... علىَّ لسانى فى الخُطوبِ ولا يَدى
لسانى وسيفى صارمان كلاهما ... ويبلغ مالا يبلغ السيفُ مِذوَدى

و يسير مفتخراً بشيمه وفضائله وسَراة قومه حتى يقول : —

فلا تعجلَن ياقيسَ وارَبع فانما ... قُصاراك أن تُلقَى بكل مُهَنَّدِ
حِسامٍ وأزماحٍ بأيدى أعزةٍ ... متى ترَهمْ يا بنَ الخطيمِ تبلَّدِ
لُيوتٌ لها الأشبالُ تحمى عرينَها ... مَداعيسُ بالخَطّىِّ فى كل مَشهَدِ
فقدذاقت الأوسُ القتالَ وطُرِّدت ... وأنت لدى الكُنَّاتِ فى كل مَطردِ
فناغِ لدى الأبياتِ حُورا نواعماً ... وكحِّل مآقيك الحسانَ بإثْمِدِ
نفتكم عن العليـــاء أمّ لئيمة ... وزند متى تُقدَح به النار يَصلَدِ (١)

نسيب قيس لم يقابله نظيره عند حسان ، وكلاهما فخر بنفسه على طريقة المقابلة ، وقد قالا فى الحكمة على طريق المبارة والتحدى ، وأنهى قيس قصيدته بالوعيد ، وحسان أنهاها بتهديد قيس ، وهجاء قومه الأوس ، ورمى قيس باللؤم ، والضعة ، وخصال النساء . وظاهر أن المناقضة هنا كانت لينة لولا عُنف حسان فى نقيضته عنفاً نسبياً بما هدد وهجا صريحاً ، وعلى كل فلا تزال النقائض بين الأوس والخزرج بريئة من الفُحش والإسفاف .

وكان يوم قارع بسبب غلام قُضاعى أصابه رجل من بنى النجار ، وكان عم الغلام جاراً لمعاذ بن النعمان الأوسى ، فأرسل معاذ إلى بنى النجار أن ادفعوا إلىَّ دية جارى أو ابعثوا إلىَّ بقاتله أرى فيه رأيى ، فأبوا أن يفعلوا ، فقال رجل من

---

(١) راجع ديوان حسان ص ١٢١ — ١٢٣ وديوان قيس بن الخطيم ص ٢٠ — ٢٢ والكامل لابن الأثير ج ١ ص ٤٩٧ والمصدر الأخير بعكس الترتيب .

بنى عبد الأشهل : والله إن لم تفعلوا لا نقتل به إلا عامر بن الإطنابة ، وعامرٌ من أشراف الخزرج ، فبلغ ذلك عامراً فقال من أبيات : ـ

ألا مَن مُبلغُ الأكفاء عنى ... وقد تُهدَى النصيحةُ للنَصيح
فانكمُ وما ترجون شطرى ... من القول المزَجىّ والصريح
سيندَم بعضكم عجلا عليه ... وما أثَرُ اللسان إلى الجروح
أبت لى عِرْتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمدَ بالثمن الربيح . الخ

فقال الربيع بن أبى الحُقيق اليهودى فى عِراض قول عامر بن الإطنابة : —

ألا مَن مبلغ الأكفاء عنى ... فلا ظلمٌ لدىّ ولا افتراء
فلستُ بغايظ الأكفاء ظلماً ... وعنـــدى للملامات اجتراء
فلم أر مِثلَ مَن يدنو لخسفٍ ... له فى الأرض سَير واستواء
وما بعضُ الإقامة فى ديار ... يُهان بهـا الفتى إلا عناء

و يستمر فى حكمه إلى آخر القصيدة[1] .

فمع وحدة السبب ، والبحر ، واختلاف القافية ، يظهر أن المناقضة هنا كانت نوعاً من تصوير الحماسة ، وعزة النفس عند الشاعرين دون أن يلتحما التحاماً صريحاً أو يتسابا ، هذا إلى مشاركة اليهود فى هذا الفن . ثم التقى الحيان عند فارع ، وهو أطُم حسان بن ثابت ، واشتدت بينهما الحرب حتى حمل دية الغلام عامر بن الإطنابة .

ثم حرب حاطب للخزرج على الأوس بينها و بين يوم سُمير نحو مائة سنة ، ويقول ابن الأثير : إن حرب حاطب آخر وقعة بينهم إلا يومَ (بُعاث) حتى جاء الإسـلام ، و بعد حاطب أيام فرعية له ، وحاطب هو ابن قيس من بنى أمية بن زيد بن مالك الأوسى كان له نزيل ذُبيانى فغدا يوماً إلى سوق بنى قَينُقاع فرآه

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٥٠١ .

يزيد بن الحارث المعروف بابن فُسحُم الخزرجى فحمل رجلا يهودياً فكسعه فقتله حاطب فجرى ابن فُسْحُم خلف حاطب فأدركه وقد دخل بيوت أهله فلقى رجلا من بنى معاوية فقتله، فثارت الحرب بين الأوس والخزرج فكان الظفر يومئذ للخزرج.

وكانت مناقضة بين قيس بن الخطيم وعبد الله بن رَواحة حول هذا اليوم ويوم (بُعاث) معاً[٢] فقد قال قيس قصيدته المشهورة :

أتعرفُ رسماً كاطّراد المذاهب ... لِعمرةَ وحشاً غيرَ موقفِ راكبِ
ديارُ التى كادت ونحنُ على مِنًى ... تَحلّ بنا لولا نجاء الركائب

و بعد النسيب ينتقل إلى الحماسة المتصلة بالموضوع فيقول :

دعوتُ بنى عَوفٍ لحقن دمائهم ... فلما أبَوا سامحتُ فى حرب حاطب
وكنتُ امرأ لا أبعثُ الحرب ظالما ... فلما أبَوا أشعلتُها كلَّ جانب

ويُشير إلى من انضم إليهم من اليهود فيقول :

أتت عُصَبَ ملْكاهنَين ومالكٍ ... وثعلبةَ الأثرينَ رَهطِ ابن غالبِ[١]
رِجالٌ متى يُدعَوا إلى الموت يُرقلوا ... إليه كإرقال الجمال المصاعبِ[٢]

ثم ينتقل إلى يوم (بُعاث) فيقول :

ويوم (بُعاث) أسلمتنا سيوفنا ... إلى نسبٍ فى جذم غسان ثاقبِ
يُعَرِّينَ بِيضاً حين نلقى عدونا ... ويُغمدنَ حُمراً ناحلات المضارب

ويذكر بنى عوف وما حلّ بهم حتى يقول :

فهلاّ لدى الحرب العَوانِ صبرتمُ ... لِوَقعتِنا والبأسُ صعبُ المراكبِ
ظأرناكمُ بالبيض حتى لأنتمُ ... أذلُّ من السُقبانِ بين الحلائب

---

(١) راجع ديوان قيس ص ١٠ و٣٦ .
(٢) الكاهنان من قريظة أو من النضير أيضا .
(٣) أرقل البعير نفس رأسه وارتفع عن الزميل والمصعب الذى لم يمسه حبل ولم يذلل .

فأبْنا إلى أبنائنا ونســـــائنا وما مَن تركنا فى (بُعاث) بآئب

فأجابه عبدُ الله بن رواحة الحارثى الخزرجى :

أشاقتْك ليلى فى الخليط المجانبِ نعم، فرشاشُ الدمع فى الصدرِ غالبِى

و بعد النسيب ينتقل إلى الفخر بقومه والحماسة فيقول :

إذا عُيّرتْ أحسابُ قوم وجدتَنا ذوى نائل فيها كِرامَ المضاربِ

نحامى على أحســـابنا بتلادنا لمفتقر أو ســـائل الحق راغبِ

وأعمَى هدتْه للســـبيل حُلومُنا وخصمٍ أقمنا بعدَ ما لجَّ شاغِب

ومعترَكٍ ضنك ترى الموتَ وسطَه مَشينا له مشىَ الجِمال المصاعب

ثم ينهى قصيدته بقوله يخاطب قيساً وقومه :—

فَخرْتم بجمع زاركم فى دياركم تغلغلَ حتى دُوفعوا بالرواجب

أباح حصوناً ثم صعّــد يبتغى مطيــة حىّ فى قُريظة هاربِ

فإذا تركنا النسيب ، وجدنا حماسة بحماســة وهى مناقضة عامة دون التحام وسباب ، حتى إذا وصلنا إلى آخر قصــيدة ابن رواحة رأيناه يفخر بانتصار قومه على الأوس واليهود على الرغم من اصطناع قيس الحزم والنصح فى شعره وادعائه الظفر ، فالمناقضة قائمة على القلب والموازنة .

وإذا كان يوم الرَّبيع من أعقاب (حاطب) كان يوماً شديداً اقتتل فيــه الحيــان حتى كاد يُفنى بعضهم بعضاً فانهزمت الأوس وتبعتها الخزرج إلى الدور وأبَتْ أن تصالحهم ثم كفَّت عنهم على ما بينهم من العداوة ، وفى هذا اليوم يقول حسان بن ثابت مشبّباً بليلى بنت الخطيم فى مطلع قصيدته : —

لقد هاج نفسَك أشجانُها وعاودها اليومَ أديانهــا

تذكرتَ ليــلى وأنَّى بِها إذا قُطعت منــك أقرانُها

وبعد النسيب يقول مفتخراً على الأوس :ـ

ويثربُ تعـــلم أنّا بها ... إذا التبس الأمر ميزانُها
ويثربُ تعـــلم أنّا بها ... إذا قحط القطرُ نُوآنُها
ويثرب تعـــلم أنّا بها ... إذا خافت الأوسَ ، جيرانُها
ويثرب تعـــــلم أن النبيـ ... ـتَ عنـد الهزاهز ذُلانُها[1]
متى ترنا الأوس فى بيضنا ... نهزُّ القنـا تخبُ نيرانُها
وتُعطِ القيـادَ على رغمها ... ويَنزِلْ من الهـامِ عِصيانُها

فأجابه قيس بن الخطيم مشبِّباً بعَمرة زوج حسان بن ثابت :ـ

أجـدَّ بعَمرةَ غنيـانُها ... فتهجرَ أم شأنُنا شانُها
وإن تُمسِ شطت بها دارُها ... وباح لك اليوم هِجْرانُها

ثم ينتقل إلى الفخر على الخزرج فيقول مناقضاً حسان بن ثابت :ـ

ونحنُ الفـوارس يوم الرَّبيـــعِ قد علموا كيف فُرْسانُها
جنَبنا الحِرابَ وراء الصر ... يخ حتى تقصف مُرَّانُها
ولاقى الشـقاء لدى حربنا ... دُحَيٌّ وعوف وإخـوانُها
ولولا كراهةُ سفكِ الدماء ... لعـــادَ لِيثربَ أديانُها[2]
ويثربُ تعـــلم أن النبيـــتَ راسٍ بيثربَ ميزانُها
حسانُ الوجوه حِداد السُيو ... فِ يبتدرُ المجدَ شُبّانُها
وبالشوطِ من يثربٍ أعبدٌ ... ستهلِكُ فى الخمر أثمانُها
يهونُ على الأوس أثمانُهم ... إذا راح يخطِر نَشوانُها
أتتهمْ عَرانينُ مِن مالكٍ ... سِراعٌ إلى الروع فِتيانُها

---

(١) النبيت هو عمرو بن مالك بن الأوس . ذلانها : أذلاؤها . الهزاهز : الشدائد
(٢) الأديان العادة .

وقـــد علموا أن ما فلّهم حديدُ النبيتِ وأعيـانها[1]

وأول ماجدّ فى هذه المناقضة دخول النسيب فى عناصر النقائض كما رأيت ، ثم نجـد حسان يفخر على الأوس ويهجوها بالخضوع والذلة ، فيفخر عليه قيس بالظفر والحزم والشجاعة ، فكانت المناقضة من باب الموازنة والقلب دون سباب . وأما يوم البقيع (بقيع الغرقد) فكان للأوس على الخزرج وفيه يقول عبيد بن ناقد الأوسىّ من قصيدة :

لمـا رأيتُ بنى عوف وجمعَهم جاءوا وجمعَ بنى النجار قد حفلوا
دعوتُ قومى وسهّلتُ الطريق لهم إلى المـكانِ الذى أصحابه حللوا
جادت بأنفُسِها من مالك عُصبٌ يوم اللقـاء فلا خافوا ولا فشـلوا
وعاوروكم كئوس الموت إذ برزوا شـطر النهار وحتى أدبر الأُصُـلُ

فأجابه عبد الله بن رواحة الحارثى الخزرجى :

لمـا رأيتُ بنى عوف وإخوتَهم كعبا وجمـعَ بنى النجار قد حفِلوا
قوما أباحوا حماهم بالسـيوف ولم يفعلْ بكم أحدٌ مثـلَ الذى فعلُوا

قيل وكان رئيس القوم يومئـذ أبو قيس بن الأسلت فقام فى حربهم وهجر الراحة فشحب وتغير ، وجاء يوماً إلى امرأته فأنكرته حتى عرفته بكلامه ، فقالت له : لقد أنـكرتك حتى تكلمت ، فقال قصيدته المشهورة :

قالت ـ ولم تقصد لقيل الخنا ـ مَهلاً فقـد أبلغتَ أسماعى[2]

ويوم مُضرِّس ومُعبَّس وهما حائطان كانا لدُحَينـة إلى آطام بنى عـدى بن

---

(١) راجع ديوان حسان ص ٤١٦ وديوان قيس ص ٧ وابن الأثير ج ١ ص ٤٩٩ و ٥٠٤ والأغانى ج ٣ ص ١٢ دار الـكتب .

(٢) راجع ابن الأثير ج ١ ص ٥٠٥ وأيام العرب فى الجاهلية ص ٨٢ والأغانى ج ١٥ ص ١٦١ بولاق .

النجّار ، وكان يوما للخزرج على الأوس قال فيه قيس بن الخطيم قصيدته :

ألمَّ خيالُ ليلى أمَّ عمرٍو ولم يُلحِمْ بنا إلاَّ لأمرِ
ألا أبلغ بنى ظَفَرٍ رسولا فلم نذلِلْ بيثربَ غيرَ شهر

القصيدة ، فرد عليه عبد الله بن رَواحة بقوله :

كذبتَ لقد أقمتَ بها ذليلا تُقيم على الهوان بها وتَسرِى[1]

وفى ابن الأثير أن حسان قال يفخر بما أصاب قومه من الأوس ذلك اليوم — وفى ديوان حسان أن هذا الشعر قيل فى هجاء ابن الأسلت — :

ألا أبلغْ أبا قيس رسولا إذا ألقى لها سمعاً تُبينُ
نسيتَ الجِسرَ يوم أبى عَقيلٍ وعندك من وقائعنا يقين

وأبو عقيل الأسلت رئيس الأوس قتل فى ذلك اليوم الذى يسمى أيضاً يوم الجسر .

وعلى كل فالقصيدة قيلت بعد يوم بعاث وهو متأخر عن يومنا هذا .

وفى ديوان قيس بن الخطيم[2] مناقضة بينه و بين أنس بن العلاء أخى بنى الحارث بن الخزرج ، و يظهر أنها قيلت يوم حاطب ، وآية ذلك أن لفظ (الرَّدْم) ورد فى شعر قيس ، وهو جسر رَدم بنى الحارث بن الخزرج حيث التقى الحيان يوم حاطب كما يقول ابن الأثير ، فقال قيس .

ألا أبلِغا ذا الخزرجِىَّ بِرِسالةً رِسالةَ حَقٍّ لست فيها مُفَنَّدَا
فإنا تركنا كم لدى الرَّدْمِ غدْوَةً فريقين مقتولا به ومُطَرَّدا
صبَحنا كمُ ، مِنّا به كلُّ فارس كريمِ النَثَا يحمى الذمارَ ليُحمدَا
أتذكرِ أمراً لم تنلهُ وإنما تناولَ سَجلَ الحرب من كان أنجدا

---

(١) ديوان قيس ص ٣٢ وابن الأثير ٣٠٧ . (٢) ص ٤١ .

فذُق غِبَّ ما قدَّمتَ إنّي أنا الذى صبحتكمُ فيه السِمامَ بِبرجُدا
ونحن حُماةُ الحربِ ليست تُضرنا نسوقُ خميساً كالقطا مُتبدِّدا

فأجابه أنس :

ألَمَّ خيالٌ مِن أُميمةَ مَوْهِنَا فلم أغتمضْ ليلَ التمام تَهجُّدا
وكان يراها القلبُ جيداء ترتَعى سوائل يُمْنٍ فالحياءَ فارثدا
ونحنُ حُماةٌ للعشيرة أينما نكن لا يُبالوا أنْ يغيبوا ونشهدا
نُحامى على جِذْمِ الأعزّ بمالِنا ونبذُلُ حُرّاتِ النفوسِ لِنُحمدا
صبحناهُم عند القِتال بغارةٍ فأصبح قيسٌ بعدها مُتلدِّدا
يَعَضُّ على أطرافه كُلَّما بدا لنا فارس يبغى القِتالَ تنَجُّدا

كلا الشاعرين يفخر بقومه ، ويهجو صاحبه شامتاً ، وإن امتازت قطعة أنس بالنسيب وادعى كل أن النصر لقومه .

— ٣ —

وإذا كانت هذه الدراسة قد اقتضت الإشارة إلى بعض أيام القحطانية والعدنانية فيما مضى ، فلنتقدم الآن إلى الإشارة إلى سائر ما ورد فيها شواهد لفن المناقضة .

من ذلك يوم (سَحبل) لبنى الحارث بن كعب من كهلان على بنى عُقيل ابن كعب من قيس عيلان ، وهذا اليوم وإن حدث فى الإسلام إلا أن روحه جاهلى ، لذلك عده الميدانى بين أيام الجاهلية ، وخلاصة القول فيه ، أن جعفر بن عُلبة الحارثى كان يزور نساء بنى عقيل بن كعب فآذاه العقيليون ثم خلوا سبيله ، ولكنه مثّل بأربعة عشر فارساً من بنى عقيل بوادى سَحبل وقتلهم ، واستعدَتْ بنو عقيل عليه السَرىّ بن عبد الله الهاشمى عامل مكة لأبى جعفر المنصور فحبس

جعفر بن علبة ثم قتله ، وقيل فى ذلك شعر منه ماقاله أبوه عُلبة لامرأته أم جعفر قبل أن يقتل ابنها :

لَعمركِ إن الليل يا أمَّ جعفر علىّ ، ، وإن علّلتنى ، لَطويلُ
أحاذرُ أخباراً من القوم قد دنت ورجعةَ أنقاضٍ لهن دَليلُ

فأجابته امرأته فقالت تسفّه خُطته وتقصيره فى حق ابنه :

أبا جَعفر سلّمت للقوم جَعفرا فمُت كمداً أو عِشْ وأنت ذليلُ

وروى أن بنتاً ليحيي بن زياد الحارثى حضرت الموسم فى ذلك العام لما قتل فكفّنته واستجادت له الكفن وبكته هى وجميع من كان معها من جواريها وجعلن يندبنه بأبياته التى قالها قبل قتله ومنها :

ألا ، لا أبالى بعد يوم بِسَحبل إذا لم أُعَذَّبْ أن يجىء حِماميا
تركتُ بأعلى سَحبلٍ ومضيقِه مُراقَ دَمٍ لايبرح الدهرَ ثاويا
شفيتُ به غيظى وحربَ مواطنى وكان شفاءً آخر الدهر باقيًا
أرادوا ليُثنونى فقلت تجنّبوا طريقى ، فمالى حاجة مِن ورائيا
كأنّ العقَيليينَ يومَ لَقيتُهم فِراخُ قطا لاقينَ صَقرا يمانيا
تركناهمُ صَرْعى كأن ضجيجَهم ضَجيجُ دَبارى النِيب لاقت مُداويا
ولم أترك لى رِيبةً غير أننى وَدِدتُ (معاذاً) كان فيمن أتانيًا
شفيتُ غليلى من (خشينة) بعد ما كسوت الهذيل المشرفىَّ اليمانيا
أحقا عباد الله أن لست رائيًا صحارى نجد والرياح الذواريا
ولا زائراً ثُمَّ العرابين تنتمى إلى عامر يحللن رملا معاليا . .

فقال (معاذ) يجيبه عنها بعد ما قتل، ويخاطب أباه ويعرّض له أنه قتل ظلماً لأنهم أقاموا قَسامة (شهادة) كاذبة عليه حتى قتل ولم يكونوا عرفوا القاتل من

الثلاثة بعينه إلا أن غيظهم على جعفر حملهم على أن ادعوا القتل عليه : ـ

أبا جعفر سَلم بنجرانَ واحتسِب ... أبا عارِمٍ والمسنماتِ العواليا

وقوِّدْ قلوصاً أتلف السيفُ ربها ... بغير دم فى القومِ إلا تماريا

إذا ذكرته مُعصرٌ حارثية ... جرى دمع عينيها على الخد صافيا

فلا تحسبن الدَّيْنَ يا علبُ مُنسأً ... ولا الثائرَ الحرانَ ينسى التقاضيا

سنقتل منكم بالقتيـــل ثلاثة ... ونُغلى وإن كانت دمانا غواليا

تمنيتَ أن تلقى (مَعـاذا) سفاهة ... ستلقى مَعاذا والقضيب اليمانيا[1]

هذه مناقضة بين حىّ وميت ، افتخر جعفر بآثاره فى هذا اليوم فرد عليه متوعداً أباه ، مسفها رأيه فى تمنيه لقاءه .

ونذكر يوم الرَحْرَحان لعامر على تميم ولكنه متصل بسلطان المناذرة والغساسنة واشترك فى مناقضته شعراء فحطان[2] وحدثت فى سبيله حوادث شتى ، منها قتل زهير بن جذيمة العبسى ، وخالد بن جعفر بن كلاب ، والحارث بن ظالم المرى ، وإنما نذكر هنا شواهد النقائض المتصلة بهذه الحوادث لأنه قتل الحارث ابن ظالم المرى خالد بن جعفر الكلابى أبت غطفان أن تجيره ، فغضبت لذلك بنو عبس وبعث إليه قيس بن زهير بن جذيمة بهذه الأبيات :

جزاكَ اللهُ خيراً من خَليل ... شفى من ذى تُبُولته الخليـــلا

أزحتَ بها جَوَى ودَخيلَ حُزنٍ ... تمخَّخَ أعظُمى زمناً طـــويلا

كسوتَ الجعفرىَّ أبا جُزَىٍّ ... ولم تحفِلْ به ، ســـيفاً صقيلا

أبأتَ به زُهيرَ بنى بَغيض ... وكنتَ لمثلها ولها حَمـــولا

كشفتَ له القِناعَ وكنتَ مِمّن ... يُجلِّى العـــارَ والأمرَ الجليـلا

---

(١) راجع معاهد التنصيص جـ ١ ص ٤٥ وأيام العرب فى الجاهلية ص ٨٣ .

(٢) راجع ابن الأثير جـ ١ ص ٤١١ — ٤٢٠ والنقائض جـ ١ ص ٢١٤ والأغانى جـ ١١ ص ٧٥ — ١٣٠ وأيام العرب فى الجاهلية ص ٢٤٢ و ٢٤٤ والعقد الفريد جـ ٣ ص ٤٥ .

فأجابه الحارث بن ظالم :

أتانى عن قُيَيْسٍ بنى زهـــيرٍ مقالةُ كاذبٍ ذكرَ النُبُولا
فـــلو كنتمْ كما قلتم لكنتم لقاتلِ ثأركم حِرزاً أصـــيلا
ولـكنْ قُلتمُ جاورْ سِـــوانا فقد جلّلتنا حَدثاً جليـــلا
ولو كانوا همُ قتـــلوا أخاكم لما طردوا الذى قتل القتيـلا

فالحارث يكذب قيساً فى ادعائه الفخر بما فعل الحارث ، و يستدل لقوله بعدم حمايتهم إياه ، و بخوفهم من جرائره ، و بتقصيرهم فيما يجب عليهم وأنه دون أعدائهم فى ذلك ، فأفسد عليه معانيه ونقاها جميعاً .

وفى هـذا الحادث يقول عبد الله بن جعدة الكلابى يخاطب الحارث — وكان قتله جعفراً غيلة وهو نائم :

ياحار لو نبّهته لوجـدتَهُ لا طائشاً رَعِشـاً ولا مِعزالا
شـقّت عليه الجعفرية جيبَها جزعاً ، وما تبكى هناك ضلالا
فانعَوا أبا بحر بكل مُحرَّبٍ حرّانَ يُحسبُ فى القناةِ هلالا
فليُقتلَنَّ بخالد سرواتـكم ليجعَلَنَّ لظـــــالمٍ تِمثالا

فأجابه الحارث : ـ

تاللهِ قد نبّهتُه فوجدتُه رِخوَ اليدينِ مُواكِلا عِسقالا
فعلوتُه بالسيفِ أضربُ رأسـه حتى أضَـلَّ بِسَلحهِ السِّربالا

فـكذّب ابن جعدة ، وهجا جعفراً بالجبن والفزع .

وكان عَمرو بن الإطنابة الخزرجى صديق خالد بن جعفر فلما بلغه مقتله قال : واللهُ لو وجده يقظان ما أقدم عليه ، ولوددتُ أنى لقيتُه ، و بلغ الحارث قولُه ، فقال : والله لآتينّه فى رحله ولا ألقاه إلا ومعه سلاحه فقال ابن الإطنابة قصيدته ،

وقيل إنه دعا بشرابه ووضع التاج على رأسه ودعا بقيانه فتغنين له : —

عَلِّلانى وعلِّلا صاحِبَيَّا واسقيانى من المروَّقِ رِيَّا
إن فينا القِيانَ يعزِفن بالدُّ فِّ لفِتياننا وعيشاً رَخِيَّا

إلى أن يقول : —

أبلغ الحارثَ بنَ ظالم الرِعـــديد والناذرَ النذورَ عَلَيَّا
إنما يَقتـــلُ النيامَ ولا يقـــتُلُ يقظان ذا سلاحٍ كَمِيَّا
مَعِى شِـــكَّتى معابل كالجمـ ـرِ وأعددتُ صارماً مَشرَفِيا
ولوهبطتَ البلادَ أنسيتُك القتـــلَ كما يُنسِىء الشىءَ النَسِيَّا

فبلغ الحارثَ شعره فذهب إليه يصاوله ولكن عمراً أفلت منه فانصرف الحارث إلى قومه وقال مجيباً له : —

اعزِفا لى بِـــاَذَّةٍ قَينَتَيَّا قبل أن يُبكرَ المنونُ عَلَيَّا

إلى أن يقول : —

بَلغتنا مقالةُ المرء عَمـــرٍو فأنِفنا وكان ذاك بَدِيَّا
قد هممْنا بقتـــله إذ بَرَزْنا ولقيناهُ ذا سِـــلاحٍ كَمِيَّا
غـــيرَ مانائمٍ تعلّل بالحِلـــ ـمِ مُعِدًّا بكفِّه مشرفيا
فمَنَنَّا عليـــه بعد عُلُوٍّ بوفاءٍ وكنتُ قِـــدما وَفِيَّا
ورجعنا بالصفحِ عنهُ وكان الـــمنُّ منا عليه بعـــدُ تَلِيَّا

وكان رد الحارث ، إن صح ما روى ، قولا وعملا فكذب عمراً فى دعواه .

هذا ماوقع لنا من شواهد النقائض فى الأيام القحطانية ، ولعل ما ذهب منها أكثر مما بقى ، فإن فى هذه الأيام إشارات إلى مواقف بين الشعراء تقتضى ذلك ، على أن ما ورد هنا — إن صح جميعه — كاف فى الدلالة على قدم هذا الفن وأصالته فى الحياة الجاهلية وإن لم يبلغ فى القوة والدقة ما بلغ أيام الأمويين .

الفصل الرابع

النقائض والأيام العدنانية

— ١ —

الأيام العدنانية هى ما حدثت بين قبائل معد بن عدنان، وهى كثيرة ، منها ما كان بين قبائل ربيعة ، وما كان بين ربيعة وتميم ، ومنها أيام قيس فيما بينها ، وأيام قيس وكنانة ، ومنها أيام قيس وتميم ، وأيام ضبة وغيرهم ، وذلك سوى مغاورات شتى بين القبائل من أى شعب ، وقد كثر الشعر جداً فى سبيل هذه الأيام صحيحاً وموضوعا حتى ليستحق دراسة خاصة مستفيضة تتناوله وتتناول معه قصص هذه الحوادث ، ولكننا هنا سنقف عند الإشارة إلى الأيام التى تضمنت المناقضة الشعرية .

من أيام ربيعة فيما بينها حرب البسوس بين بكر وتغلب ابنى وائل وهى مشهورة معروفة الوقائع[1] وقد قيل فى هذه الوقائع شعر كثير منه مادار بين جساس بن مرة وأبيه مما يشبه المناقضة ، فلما قتل جساس كليباً قال أبوه : وددت أنك وإخوتك كنتم متّم قبل هذا ، مابى إلا أن تتشاءم بى أبناء وائل ، فأقبل قوم مرة عليه وقالوا : لا تَقُل هـذا ولا تفعل فيخذلوه وإياك ، فأمسك مرة ، فقال جساس : —

---

(١) راجع النقائض ص ٧٧٣ وابن الأثير ج ١ ص ٣٨٤ والعقد الفريد ج ٣ ص ٦٦ وأيام العرب فى الجاهلية ١٤٢ .

تأهّبْ مثل أُهبةِ ذى كِفاحٍ ... فإن الأمرَ جَلَّ عن التلاحى
وإنى قد جنيتُ عليك حرباً ... تُغِص الشيخَ بالماء القَراح
مُذكَّرةً متى ما يصحُ منها ... فتى نشَبت بآخر غيرِ صاح
تعدَّت تتغلبٌ ظلماً علينا ... بلا جُرمٍ يُعدُّ ولا جُناح
فلما أن رأينا واستبنّا ... عُقابَ البَغى رافعةً الجَناح
صرفتُ إليه نحساً يومَ سُوءٍ ... له كأس من الموت المتاح

فلما سمع أبوه قال يجيبه : —

فإن تكقد جنيتَ علىّ حرباً ... تُغِصُّ الشيخ بالماء القَراح
جمعتَ بها يديك على كليبٍ ... فلا وكلٌ ولا رثٌ السلاح
ولكنى إلى العَلّات أجرى ... إلى الموت المحيط مع الصباح[1]
وإنى حين تشتجر العوالى ... أعيد الرمح فى إثر الجِراح
شديد البأس ليس بذى عياء ... ولكنى أبوء إلى الفلاح
سألبَس ثوبَها وأذُبُّ عنها ... بأطراف العوالى والصِفاح[2]
فما يبقى لِعزّته ذليلٌ ... فيمنعه من القدر المتاح
فإنى قد طربتُ وهاج شوقى ... طِرادُ الخيل عارضةَ الرماح
وأجملُ من حياةِ الذلِ موتٌ ... وبعضُ العار لا يمحوه ماح

وقد وقع فى يدى كتاب مطبوع فى العراق بعنوان « تاريخ الحروب العربية أو حرب البسوس » تأليف محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ ، ورد فيه شعر كثير فى شكل مناقضات متصلة بهذه الأيام منسوبة إلى مهلهل وجساس والحارث ابن عباد البكرى وغيرهم ، وهذه الكثرة تدل على نشاط القصاص ومقدار ما نحلوا

---

(١) بنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شتى . (٢) الصفاح السيوف العراض .

وأضافوا ومن بينها هاتان المقطوعتان المذكورتان هنا والواردتان فى المراجع الأخرى، على أن دراسة هـذه الأشعار نافعة لفهم القصص الإسلامى وتبين الصورة التى تصورها هؤلاء القصاص لحرب البسوس . وقد قلنا إن هذا الشاهد يشبه النقائض وليس منها لوحدة الموضوع والبحر والقافية ، ولعدم تقابل المعانى ، فإن مرة والد جساس جرى مع ابنه فى نفس المضمار وسايره أو سايرعشيرته متأهباً منكراً الذل الذى يفرضه كليب على بكر .

وهناك يوم (جَدُود) لبنى منقر من تميم على بكر من ربيعة[1] غزا فيه الحُوفَزانُ — وهو الحارث بن شَريك — من بكر ، بنى يربوع على جدود ، ومنعتهم يربوع الماء ، فصالحهم البكريون على أن يُعطوا بنى يربوع بعض غنائمهم التى كانت معهم منى بنى سعد ابن زيد مناة ، وعلى أن يخلى اليربوعيون بينهم وبين الماء ، ولما علم بذلك بنو سعد ، قال قيس بن عاصم المنقرى فى ذلك —

جزى الله يربوعاً بأسوأ سعيها ... إذا ذُكرت فى الغائبات أمورُها
ويوم (جدود) قد فضحتم أباكمُ ... وسالتمُ والخيل تدمَى نحورُها
ستخطم سعد والرِّبابُ أنوفكم ... كما غاظ فى أنف القضيب جريرها[2]
أفخراً على المولى إذا ما بَطِنتمُ ... ولؤماً إذا ما الحربُ شبّ سعيرها
أتانى وعيد الحوفزانِ ودونَه ... من الأرضِ صحراواتُ فَلْجٍ وقُورُها
أقمْ بسبيل الحىِّ إن كنتَ صادقاً ... إذا حشدتْ سعدٌ وجاش نصيرها
عصمنا تميماً فى الحروب فأصبحت ... يلوذ بنا ذُو وَفْرِهَا وفقيرُها

فأجابه مالك ، ولعله مالك بن مسروق الرَّبيعى ، فقال : —

سأسألُ مَن لاقى فوارسَ مِنقَرٍ ... رِغاب إماءٍ كيفَ كان نكيرُها

---

(١) شرح المفضليات ص ٢٤٠ ونقائض جرير والفرزدق ص ١٥٤ و ٣٢٦ والعقد الفريد جـ ٣ ص ٥٢ وابن الأثير جـ ١ ص ٣٥٦ .

(٢) غاظ : دخل . والقضيب الناقة التى لم تروض . والجرير الحبل

وأما يوم (مُبايِض) فكان لبكر على تميم ، وذلك أن طريف بن مالك العنبرى من تميم كان لا يتقنع فى عكاظ بخلاف الفرسان الذين كانوا يتقنعون كى لا يعرفوا ، فوافى عكاظ وكان قد قتل شراحيل الشيبانى ، فجاء حصيصة بن شراحيل يسأل عن طريف حتى دُل عليه فأخذ يتأمله ، ففطن لذلك طريف وسأله عن شأنه ، فقال : أريد أن أعرفك لعلى أن ألقاك فى جيش فأقتلك ، فقال طريف : —

أوَكلما وردتْ عُكاظَ قبيلةٌ ... بعثوا إلىّ عريفَهم يتوسَّمُ
فتوسّمونى إننى أنا ذلكمْ ... شاكى سلاحى فى الحوادث مُعلَمُ
حولى فوارسُ مِن أُسَيِّدَ شَجْعَةٌ ... وإذا نزلتُ فحولَ بيتَىَ خَضَّمُ
تحتى الأغرُّ وفوقَ جلدى نثرةٌ ... زَعفٌ ترِدّ السيف وهو مُثَلَّمُ

وحدثت أمور كان منها أن التقى بنو شيبان وتميم عند مبايض وهزمت تميم فقال حصيصة وقد قتل طريفاً : —

ولقد دعوتَ طريفُ دعوةَ جاهل ... غِرٍّ وأنت بمِنظر لا تعلمُ
وأتيتَ حيًّا فى الحروب محلُّهم ... والجيش باسم أبيهمِ يُستقدم
فوجدتَ قوماً يمنعون ذِمارهم ... بُسْلًا ، إذا هاب الفوارسُ أقدموا
وإذا دعَوا ببنى ربيعة أقدموا ... بكتيبة مثل النجوم تُلَمْلَمُ
حشدوا عليك وعجّلوا بِقِراهمُ ... وحمَوا ذِمار أبيهمِ أن يُشتَموا
سامُوك دِرعَك والأغر كليهما ... وبنو أُسَيِّدَ أسلموك وخَضَّمُ (١)

فرد حصيصة على طريف ما ادعاه من شجاعته وشجاعة قومه ووضع قومه

(١) راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٦٥ وابن الأثير ج ١ ص ٤٥٠ معاهد التنصيص ج ١ ص ٧١ .

بإزاء قومه ، حتى إذا وصل إلى آخر أبياته وضع بيته الأخير بإزاء بيتى طريف الأخيرين ، فسلبه درعه وفرسه ، وسخر بأسُيّد وخضّم اللتين أسلمتاه حتى قتل ، فكذبه فيما ادعاه .

وكان يوم الشَيّطين لبكر على تميم[1] وكان بعد الإسلام ولم يكن أسلم ذووه ، والشيطان واديان لبكر أجدبا فتركتهما إلى السواد وأقامت فيه ، ثم أخصب الشيطان فنزلتهما تميم ، فأغارت بكر على تميم وهزمتهم فقال رُشيد بن رُميض العنزى العنبرى من ربيعة بن نزار : —

وما كان بين الشيّطين ولَعْلَعٍ ... لِنسوتِنا إلا مَناقِلُ أربَعُ[2]

فجئنا بجمع لم ير الناسُ مِثله ... يكاد له ظهرُ الوريعة يظلع[3]

بأرعَنَ دَهمٍ تُنشَدُ البُلقُ وسطهُ ... له عارضٌ فيـــــه المنيّةُ تَلمعُ

إذا حان منـه منزل القوم أوقدت ... لأخراه أولاه سنا وتيفّعوا[4]

صبَحنا به سعداً وعمراً ومالكا ... فظلّ لهم يومٌ سن الشر أشنَع

وذى حَسبٍ من آل ضبّةَ غادروا ... يُجَر كما جُرَّ الفصيل المقرَّعُ[5]

تقصَّعُ يربوعٌ بِسُرَّةِ أرضِنا ... وليس ليربوع بهـــا مُتقَصعُ[6]

وقلتُ ليربوع أسِرُّ نصـيحةً ... ولو أن يربوعاً إذا امتار يرفع

يخلوا لنـا صحنَ العِراقِ فإنه ... حِمًى منهـم لا يُستطاع مُمنّعُ

فأجابه مُحرِز بن المكعبَر الضبّى وكانت ضبة قد استحرّ بها القتل مع تميم : —

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٠٢٠ وابن الأثير ج ١ ص ٤٩٠ والعقد الفريد ج ٣ ص ٦٤ .

(٢) لعلع موضع أو جبل أو ماء . (٣) الوريعة اسم فرس .

(٤) تيفعوا : رفعوا نارهم على يفاع من الأرض لترى .

(٥) المقرع الذى به القرع وهو جدرى فيجر فى السباخ ليتفقأ ما به .

(٦) متقصع : مقام.

فخرتم بيوم الشيطين وغيركم ... يضر بيوم الشيطين وينفع
وجئتم بها مذمومة عنزية ... تكاد من اللؤم المبين تظلع
فإن يك أقوام أصيبوا بغرة ... فأنتم من الغارات أخزى وأوجع
فريقان : منهم من أتى البحر دونه ... ومود كما أودت ثمود وتبع
وما منكم أفناء بكر بن وائل ... لغارتنا إلا ذليل مقنع[1]

فخر شاعر بكر بقوة جيوشهم ، و بآثارهم السيئة فى تميم ومن معهم . وشمت بما نزل بهم إذ لم ينتصحوا ، فرد عليه شاعر تميم بنفى هذا الفخر ، وازدراء خيلهم ، وأخذهم تميا غدراً ، و بهزيمتهم كذلك .

وأما ما كان من النقائض فى يوم بطن عاقل فقد مر ذكره فى يوم الرحرحان إذ كانا متصلين حوادث وشعراً ، فلا نعيدها هنا .

— ٢ —

فاذا انتقلنا إلى سائر أيام قيس صادفتنا أيام داحس والغبراء بين عبس وذبيان[1] وهى كثيرة الحوادث والشعر والقصص قيلت فى أثنائها معلقة عنترة العبسى ، وفى أعقابها معلقة زهير بن أبى سلمى مدحاً للحارث بن عوف وهرم بن سنان المريين لنهوضهما بالصلح بين المتحاربين . وقد جاء فى شرح ديوان الحماسة للتبريزى أن قيس بن زهير العبسى حين قتل ندبة بن حذيفة الفزارى ، أرسل إلى أخيه مالك بن زهير — وكان متزوجاً فى فزارة ونازلا فيهم — أن يلحق بهم خوف القتل و بعث إليه بهذين البيتين : —

---

(١) بعير موقع الظهر ، به آثار الدبر .

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ٢٠ والعقد الفريد ج ٣ ص ٤٩ والنقائض ص ٨٣ والأغانى ج ٨ ص ٢٤٠ ، و ج ١٦ ص ٣٦ بلاق .

أمالكُ لا تأمَن فزارةَ واخْشَها فإنك إن تأمَن فزارةَ هالِكُ
أمالكُ إن تحسَب مُقامَك فيهمُ صواباً ، فقدأخطأتَ فى الرأى مالكُ

فرد عليه مالك بهذين البيتين : —

ياقيسُ حسبك ما أتيت فَخلّنى وبنى فَزارةَ ، إنّنى مُتماسِكُ
أترى حُذيفةَ آخذى بجريرةٍ لم تجنِها كفى ، وأنتَ الفاتِك ؟ !

خطّأه فى رأيه ، وخالفه فى مذهبه ، وأنكر عليه ما اقترف من قتل ندبة ، ورأى فى صاحب الثأر إنصافا وعدالة .

وكان يوم (الرقَم) لغطفان على عامر[1] وذلك أن بنى عامر غزت غطفان بالرقَم — جبال دون مكة بديار غطفان — وكان عامر بن الطفيل على عامر شاباً ، فهزمتهم غطفان ، فقال عامر : —

ولتسألَنْ (أسماء) وهى حَفِيَّةٌ نُصحاءها أطُرِدْتُ أم لم أطُرَدِ
قالوا لها : فلقد طردنا خيلَه قَلَحَ الكلابِ وكنتُ غيرَ مطرَّدِ[2]

إلى آخر ما قال متوعداً متحمساً ، فبلغ شعره غطفان فهجاه جماعة منهم ، وكان النابغة الذبيانى غائباً عند ملوك غسان ، ولما عاد سأل قومه عما هجوا به عامر بن الطفيل ، فأنشدوه ما قالوا فيه ، وما قال فيهم ، فقال : لقد أفحشتم ، وليس مثل عامر يُهجى بمثل هذا ، ثم قال أبياته البائية الآتية يخطىء عامراً فى ذكره امرأة من عَقائلهم (وهى أسماء الفزارية المذكورة فى مطلع أبياته السابقة) .

ولكن ورد فى ديوان عامر بن الطفيل[3] أن أبيات النابغة كانت رداً على قول عامر للنابغة : —

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٤٨٢ والعقد الفريد ج ٣ ص٥١ وأيام العرب فى الجاهلية ص ٢٧٨ .
(٢) القلح صفرة تعلو الأسنان شبه بها قزارة . (٣) ص ١٢٩ طبع أوربة .

ألا مَن مُبلغٌ عنى زِياداً ... غداةَ القاعِ إذ أزِفَ الضِرابُ
غداةَ تثوبُ خيل بنى كِلابٍ ... على لبّاتِها عَلَقٌ يُشابُ
فإن لنـــا حُكومةَ كل يومٍ ... يُبَيِّنُ فى مَقاصـــلهِ الصوابَ
وإنى سوف أحكُم غيرَ عادٍ ... ولا قذِعٍ إذا التُمِس الجوابُ
حكومة حازم لا عيبَ فيها ... إذا ما القومُ كظَّهم الخِطابُ(١)
فإن مظيةَ الحِـــلْمِ التأنّى ... على مَهَلٍ ، وللجهل الشَّبابُ
وليسَ الجهلُ عن سِنٍّ ولـكنْ ... غدت بنوافذ القولِ الرِكابُ(٢)
فإلى بنى بَغيضٍ قد أتاهم ... رسولُ الناصحين فمـــا أجابوا
ولا ردُّوا مَحُورةَ ذاك حتى ... أتانا الحِلمُ وانخرق الحِجابُ(٣)
فإن مقالتى ما قد علمتُمْ ... وخيلى قد يحلّ لها النِهابُ
إذا يمّمنَ خيـلا مُسرِعاتٍ ... جرى بِنُحوس طيرهم الغُرابُ
وإن مرّت على قوم أعادٍ ... بساحتِهم فـــد خسروا وخابوا

وهذا ردّ النابغة فى رواية ديوان عامر :

ألا أبلِغ عُوَيمرَ عن زِيادٍ ... فإن مَظِنّةَ الجهـلِ الشبابُ
فإنك سوف تحـلمُ أو تناهى ... إذا ما شِبتَ أو شابَ الغُرابُ
فكن كأبيكَ أو كأبى بَراءٍ ... تُوافقكَ الحكومةُ والصوابُ
ولا تذهبْ بحلمك هافِيـاتٌ ... من الخيـلاء ليسَ لهُنَّ بابُ(٤)
فإن يك ربُّ أذوادٍ بحِسمَى ... أصابوا فى لقائك ما أصـــابوا(٥)

---

(١) كظهم : غبهم وملأهم غيظا .
(٢) شبه الشعر بالسهام النافذة التى لاترد لسرورته . (٣) المحورة المحاورة والجواب
(٤) هافيات ما يستخفك فتطيش لها . باب : مخلص ونجاة .
(٥) حسمى : يوم لبنى بغيض على عامر فيه حنظلة بن قتل الطفيل أخو عامر .

فما إن كان مِن نسب بعيدٍ ولـكن أدركوك وهمْ غِضاب
فوارسُ مِن (مَنُولةَ) غيرُ مِيلٍ ومُرَّةُ فوقَ جمعهم العقابُ[1]

ويمكن الجمع بين الروايتين بأن عامراً قال أبياته رداً على النابغة ، ولعل النص نفسه يساعد على ذلك ، فقد رمى النابغة عامراً بالجهل والطيش ، وأقذع فى هجائه دون سباب إذ فضّل عليه بعض قومه فأحنقه ، وعلى كل فإن أركان المناقضة متوافرة بين الشاعرين من كل وجه ، وبخاصة المعانى ، فقد التحمت حول الجهل والسفه ، ثم الأيام والظفر ، ثم الحماسة وأربابها ، كل ادعى لنفسه الفضائل والمآثر المتصلة بها وألصق بخصمه أضدادها دون إسفاف أو سباب .

ومن أيام قيس وكنانة يوم (بُرْزَة) لبنى فراس من كنانة على بنى سليم من قيس عيلان[2] وكان رئيس بنى فِراس عبد الله بن جِذل ، وعلى بنى سليم مالك ابن خالد ، وقامت الحرب أول الأمر على المبارزة إذ قتل عبدُ الله مالكَ بن صخر وأخاه كُرزا بعدما استصغر أخاهما هنداً ، وقال عبد الله :

تجنبتُ هِنداً ، رغبةَ عن قِتالِهِ إلى مالِكٍ ، أعشو إلى ضوءِ مالِكِ
فأنفذتُه بالرمح حين طعنتُه معانقة ليست بطعنةِ باتِكِ
وأثنى لكُرزٍ فى الغُبار بِطعنةٍ علتْ جلدَهُ منها بأحمر عاتكِ
قتلنا سُليما غثها وسمينَها فصبراً سُلَيما ، قد صبرنا لِذلكِ
فإن تكُ نِسوانى بكين فقد بكت كما قد بكت أمٌّ لكُرزٍ ومالكِ

وقال غير ذلك فى معانيه ، ثم إن بنى الشَريد ثأروا لأنفسهم يوم (الفَيفاء) فقتلوا جماعة من بنى كنانة وسبوا ربيعة بن مُكدَّم ، فقال عباس بن مِرداس فى ذلك يرد على ابن جِذل كلمته التى قالها يوم (بُرْزة) :

---

(١) منولة أم مازن وشمخ ابنى فزارة ، ومرة بن عوف بن سعد ، والأميل الذى لا ترس معه ، والعقاب الراية .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٥٦ ومعجم البلدان مادة برز .

ألا أبلِغَنْ عنى ابنَ جِذلٍ ورهطه ... فكيف طلبنا كم بكُرزٍ ومالكِ
غداة فجعناكم بحصن وبابنِهِ ... وبابنِ المعلّى عاصمٍ والمعارِكِ
ثمانيةً منهم ثأرناهم به ... جميعاً وما كانوا بَواءً بمالكِ (١)
نُذيقكم — والموت بينى سراداً ... عليكم — سَتباحدُ السيوفِ البواتكِ
تلوحُ بأيدينا كما لاح بارقٌ ... تلألأ فى داج من الليل حالكِ
صبَحنا كُم عُوجَ العناجيج بالضُحى ... تمر بنا مَرَّ الرياح السواهكِ (٢)
إذا خرجتْ من هَبوةٍ بعد هبوةٍ ... سمتْ نحو ملتفّ من الموت شائكِ (٣)

قامت المنافضة على الموازنة ووضع آثار بإزاء أخرى إذ قامت على ذكر الثأر والانتقام ، وقال هند بن خالد بن صخر بن عمرو بن الشريد لما ثأر لأخويه :

قتلتُ بمالك عمراً وحِصناً ... وخلّيتُ القتام على الخدود
وكُرزاً قد أبأتُ به شريحاً ... على إثر الفوارس بالكَديد
جزيناهمْ بما انتهكوا وزِدنا ... عليه ما وجدنا مِن مَزيدِ
جلبنا من جنوب العود جُرداً ... كطير الماء غلّس للورود

فلما افتخر هند بيوم الكَديد (٤) ولم يشهده أحد من بنى الشريد غضب من ذلك نبيشةُ بن حبيب فأنشأ يقول : —

تبخّل صعبنا فى كل يوم ... كمخضوب البنان ولا يصيدُ
وتأكل مايعاف الكلب منه ... وتزعم أن والدك الشريد
أبى لى أن أُقرَّ الضيمَ قيسٌ ... وصاحبُه المزورُ به الكديدُ

---

(١) البواء الكفء
(٢) العناجيج جمع عنجوج وهو الرائع من الخيل ، والعوج الكرام ، السواهك من الرياح العواصف . (٣) الهبوة الغبرة .
(٤) لسليم على كنانة ، راجع أيام العرب فى الجاهلية ص ٣١٢ .

فكان نقض نُبيشة قائماً على تكذيب هند فى المشاركة فى يوم الكديد ، وعلى إباء الضيم ، ورمى صاحبه بالهوان .

وفى يوم الفِجار الأول بين قيس وكنانة كان بدر بن معشر الغِفارِى رجلا منيعاً مستطيلا بمنعته على من ورد عكاظ ، وفى أحد المواسم بعكاظ اتخذ مجلساً بها وقعد فيه ، وجعل يتطاول على الناس ويقول : —

نحنُ بنو مدركةَ بنِ خِندفِ مَنْ يطعنوا فى عينه لايَطرفِ
ومَن يكونوا قومَه يُغطرِفِ كأنهم لُجّة بَحرٍ مُسدِفِ (١)

ثم مد رجله وقال : أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف ، فوثب رجل من بنى نصر بن معاويه فضربه بالسيف على ركبته فأندرها ، ثم قال : خذها إليك أيها المخندف — وهو ماسك سيفه — ثم قام رجل من هوازن فقال : —

أيا ابنُ همدانَ ذو التَّغطرُفِ بحرُ بُحورٍ زاخر لم يُنزَفِ
نحن ضربنا رُكبةَ المُخندِفِ إذ مدَّها فى أشهر المعرّفِ (٢)

ثم تلاحى الحيان حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ثم رأوا أن الخطب يسير فتراجعوا . ويوم جَبَلة من أيام قيس وتميم ، لعامر وحلفائهم من عبس على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرها (٣) وهو من أعظم أيام العرب ومثله الكلاب الثانى وذوقار ، وفى هذا اليوم يقول لقيط بن زرارة : —

ياقومُ قد أحرقتمونى باللومْ ولم أقاتِل عامراً قبل اليومْ

---

(١) مسدف : مظلم . خندف زوج إلياس بن مضر وإليها نسب أولاد إلياس جميعا . الغطريف السيدالشريف . (٢) المعرف : الموقف بعرفات — راجع ابن الأثير ج ١ ص ٤٣٩ والعقد الفريد ج ٣ ص ٧٧ . (٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٦٥٤ والعقد الفريد ج ٣ ص ٤٦ وابن الأثير ج ١ ص ٤٢٥ ، والأغانى ج ١١ ص ١٣١ دار الكتب .

فاليوم إذ قاتلتهم فلا لومْ تقدموا وقدمونى للقومْ
شتان هذا والعناقْ والنومْ والمضجَع البارد فى ظل الدومْ

فقال شأسُ بن بُلَىّ يجيبه ـ

لـكننى قاتلتها قبـل اليومْ إذ كنتُ لاتُعصى أمورى فى القوم

وهذه الإجابة لم تكن تحدياً ولا معاداة ولـكنها متابعة وتحميس إذ كان شأس الأسدى فى جانب لفيط بن زُرارة التميمى ، وشعر هـذا اليوم كثير فى الجاهلية والإسلام ، تجده فى الأغانى والنقائض خاصة .

وقد ذكرنا قبلا مناقضة يوم (المرُّوت) بين يزيد بن عمرو بن الصعِق والعوراء الرياحية فلا نعيدها هنا .

والواقع أن هناك شعراً جيداً قيـل فى أيام العرب ومغاوراتها حماسة وفخراً وهجاء ورثاء ، كنت شديد الحرص على عرضه لولا خروجه من المناقضة أو ضياع نقائضه فيما يبدو لى . وكم أود لو فرغت أنا أو فرغ غيرى لدرس هـذه الأيام عامة دراسة مستقلة تتناول حوادثها ، وقصصها ، وشعرها ولدلالاتها الاجتماعية والسياسية ، إذاً لظفرنا من ذلك بخير كثير للدراسات التاريخية والأدبية .

الفصل الخامس

النقائض والحياة الاجتماعية

وهناك نقائض قيلت فى سبيل أمور أخرى اجتماعية لاتتصل بالأيام أولاتتصل بها اتصالا مباشراً و إن كانت منها بسبب . وربما قيلت فى سبيل حوادث جزئية يسيرة لاتبلغ مبلغ الأيام فى فنونها أو سعتها . وقد قلنا من قبل إن منشأها خلاف على طرائق المعاملة الاجتماعية ومقدار ملاءمتها للأوضاع المقررة سواء أكان ذلك على أساس الحق الواضح الصريح أم على وجهة النظر واختلافها بين المتناقضين ، وقد ألممنا فى الفصل الثانى بشىء من أصول الحياة الاجتماعية فى الجاهلية وما علينا هنا إلا أن تعرض بعض الأمثلة لهذا الجانب من جوانب النقائض .

١ — كان بين امرىء القيس و بين سُبيع بن عوف أحد بنى طُهيّة وشيجة قُربى ، فنزل عليه سُبيع وسأله فلم يعطه شيئاً فذمّه سُبيع بقوله :

إذا مانزلنا دارَ آلِ مُعَـرِّزِ ... بِيليل فلا يُخلفْ عليها الغمامُ[1]

مُعرّزُ أبكار اللقاح إذا شَتَا ... وضيفكَ جار البيت لأيًا ينامُ[2]

فقال امرؤ القيس يجيبه من قصيدة : ـ

لِمَنِ الديارُ غشيتُها بِسُحامِ ... فعمايَتينِ فَهَضْبِ ذى إقدامِ

فصفا الأطيط فصاحَتين فغاضِرٍ ... تمشى النعاجُ مع الآرام[3]

دار لِهنـدٍ والرَبابِ وفرتَنا ... ولَميس قبـل حوادثِ الأيام

---

(١) يدعو عليهم بعدم السقيا ليخلهم .
(٢) مغرز : يحلب الناقة مرة ويتركها أخرى . لأيا ينام : أى لا يكاد ينام من الجوع .
(٣) النعاج : بقر الوحش، والآرام: الغزلان .

عُوجا على الطلل المحيل لعلّنا ... نبكى الديار كما بكى ابن حِذام (١)
أبلغ سُبَيعاً إن عرضت رسالةً ... أنى كهمّك إن عشوتُ أحامِ (٢)
فاقصر إليكَ مِن الوعيد فإننى ... مما ألاقى لا أشُـــدَّ حِزامى (٣)
وأنا الذى عرفتْ مَعدٌّ فضلَه ... ونشدتُ عن حُجر بنِ أمّ قطامِ (٤)
خالى ابنُ كَبشةَ قدعلمتَ مكانَه ... وأبو يزيدَ ورهطُه أعمامى (٥)
و إذا أُذيتُ ببـــلدةٍ ودَعتُها ... ولا أقيم بغير دار مُقامِ

وظاهر أن أبيات سُبيع مبتورة ضاع أكثرها بدليل ما فى رد امرىء القيس من حماسة ، و إشارة إلى وعيد سُبيع له وفخر بالأهل و إباء للضيم ، غاية مافى الأمر أن (آل مُغَرِّز) : هل هم رهط امرىء القيس أو من ذوى قُرباه أو أن ذلك نبز لأسرته ؟

٢ — كان أمية بن خلف الخُزاعى قد هجا حسان بن ثابت بقوله : —

ألا مَن مُبلغ حســـانَ عنّى ... مُغلغلةً تدِبّ إلى عُـكاظِ (٦)
أليس أبوك فينـــا كان قينـــا ... لدى القينات فَسْلافى الحِفاظِ (٧)
يمانيّا يظَلّ يَشُـــدُّ كِيراً ... وينفخُ دائباً لهبَ الشواظِ (٨)

فأجابه حسانُ فقال : —

أتانى عن أميّـــةَ زُورُ قولٍ ... وما هو بالمغيب بذى حِفاظ (٩)

---

(١) الخليل الذى أتت عليه الأحوال فغيرته وابن حذام شاعر بكى الديار قبل امرىء القيس .
(٢) كهمك كحالك ، عشوت . نظر نظراً ضعيفا ، أحامى . أدافع .
(٣) لاأشد حزامى . است فى حاجة إلى الاستعداد لمنازلة مثلك . (٤) حجر . أبو امرىء القيس .
(٥) ابن كبشة . لعله مهلهل ، راجع ديوان امرىء القيس ص ١٧٥ للسندوبى .
(٦) مغلغلة . رسالة ، وعكاظ سوق العرب المعروفة .
(٧) القين الحداد . الفسل الرذل . الحفاظ المحافظة على العهد عن المحارم .
(٨) كير الحداد ما ينفخ به . (٩) يروى ذور أى طرف من الكلام

سأنشر إن بقيت لكم كلاما ... يُنَشَّرُ فى المجامع من عكاظ
قوافِيَ كالسِلامِ إذا استمرت ... من الصمّ المعَجرفةِ الغِلاظِ[١]
تزورُكَ إن شتوتَ بكل أرض ... وترضَح فى محلك بالمقاظ[٢]
بنيتُ عليكَ أبياتاً صِلاباً ... كأمر الوَسقِ قُفِّصَ بالشِظاظ[٣]
مُجَلّلة تُعمّمه شناراً ... مُضرَّمة تأجَّج كالشُواظِ[٤]
كهمزةِ ضيغم يحمى عرينا ... شديد مغارز الأضلاع خاظى[٥]
تغضُّ الطرفَ أن ألقاك دونى ... وترمى حين أُدبِرُ باللحاظِ[٦]

فأمية رمى حسان بأن أباه كان قيناً ، وهى من الصفات التى رمى بها جرير الفرزدقَ فى الإسلام ، فكذبه حسان ، وهدده بالتشهير به فى عكاظ مجتمع العرب العظيم ، وأن هذا التشهير يكون بشعر أليم ، سائر ، يكسبه العار ، ويؤذيه أشد إيذاء ، ثم يرميه بالخوف والمهانة ، فكان أشد فى وعيده .

٣ — وكان بين بنى النجار وبين خَطْمة (بنى عبد الله بن مالك بن أوس) منازعة فى حليف لبنى النجار من بغيض فالتقوا يوما بالدَرَك[٧] وجمع بعضهم لبعض حتى أصابتهم جراح ولم يكن بينهم قتلى ومنعت بنو النجار حليفها ، فقال حسان فى ذلك : —

ففِداً أمِّى لِعَوفٍ كلها ... و بنى الأبيض فى يوم الدَرَكْ
منعوا ضيَمى بضربٍ صائبٍ ... تحت أطراف السرابيل هتَكْ[٨]

---

(١) السلام الحجارة ، المعجرفة الغليظة . (٢) ترضح : تكسر . المقاظ مكان الإقامة فى الصيف .
(٣) يقول أبياتا محكمة كالعدل المشدود بالشظاظين وهما عودان فى عروتى العكم .
(٤) مجللة معممة . (٥) خاظ مكتنز اللحم .
(٦) ديوان حسان ص ٢٤١ للبرقوقى . (٧) موضع قرب المدينة .
(٨) الضيم الذل ، والسرابيل الدروع ، وهتك شق .

و بنانٍ نادرٍ أطرافُها وعراقيبَ تفسًّا كالفلَكْ[١]

فأجابه يزيد بن طعْمَةَ الخَطْمى : —

إذْ تنادَوا يالَعوفٍ إركَبُوا ليس سِيَّينِ قوىٌّ ورُكُكْ[٢]

فاجتمعْنا ففَضضْنا جمعَهم بالصُعَيداء وفى يوم الدرَكْ

قذَفوا سيدَهم فى وَرْطَةٍ قدفَكَ المقلةَ وسط المعترَكْ[٣]

أبلغا عوفاً بأنا مَعقِلٌ نمنعُ الضيمَ وفرع مُشتَبِكْ[٤]

و إذا ماملِكٌ حار بنَا ضمِنَ الخوفُ لنا قلبَ الملِكْ[٥]

يكذب حسان فيما ادعاه من غلبة ، و يرميه بالتورط فيما لايقدر عليه رهطه ، ويفخر عليه بالتئامهم ، و إخافتهم الملوك .

٤ — وقال أبو سُفيان بن الحارث لحسان بن ثابت : —

ألا مَن مُبلغٌ حسانَ عنّى خَلفتُ أبى ولم تَخلُف أباكا

فقال حسان يجيبه : —

لأنّ أبى خلافته شديدٌ وأن أباكَ مِثْلك ما عداكا[٦]

فهذا شاهد للتوجيه من طرق النقائض .

٥ — تزوج حسان امرأة من أسلم فولدت له غلاما فقال يهجوها : —

غلام أتاه اللؤم مِن شطر خاله له جانبٌ وافٍ وآخر أكشَمُ[٧]

فقالت تجيبه : —

غلام أتاه اللؤم من نحو عَمِّه ومِن خيرِ أعراقِ ابن حسان أسلم[٨]

---

(١) نادر ساقط ، العرقوب أسفل الساق، تفسا تقطع ، والفلكة الهنة الناتئة على أصل اللسان.

(٢) ركك : ضعاف (٣) المقلة حصاة توضع فى الإناء لقسمة الماء بقدر مايغمرها ، والمعترك المزدحم . (٤) مشتبك : متقارب . (٥) خافنا الملك فلا يحاربنا .

(٦) ديوان حسان ص ٢٩٨ (٧) أكشم : ناقص (٨) نفس المصدر ص ٣٩٩

فكان نقضها تكذيباً ، وقلبا ، هجته بهجائه قومها ومدحت قومها .

٦ — رصد جماعة من الأزد تأبط شراً ، وأغروا به رجلا منهم يقال له حاجز فلم يلحقه فقال تأبط شراً فى ذلك : —

وقعقعتُ حِضْنَى حاجز وصحابَه ... وقد نبذوا خُلْقالَهم وتشنَّعوا[١]
أظن وإن صادفتُ وعثاً وإن جرى ... بى السهلُ أومَتْنٌ من الأرض مَهيعُ[٢]
أُجارى ظِلالَ الطير لوفات واحد ... ولو صدقوا قالوا له : هو أسرع
فلو كان مِن فِتيان قيس وخِندفٍ ... أطاف به القُناصُ من حيث أفزعوا
وجاء بلاداً نصف يوم وليلة ... لآب إليهم وهو أشوشُ أروع[٣]
فلو كان منكم واحداً لكفيته ... وما ارتجعوا لو كان فى مطمع

فأجابه حاجز : —

فإن تَكُ جاريتَ الظلالَ فربما ... سبقتُ ويوم القرن عريانُ أسنعُ[٤]
وخلّيتُ إخوانَ الصفاء كأنهم ... ذبائح عِتْرٍ أو نخيلٌ مُصرَّعُ[٥]
تبكيهمُ شجوَ الحمامةِ بعد ما ... أرحتَ ولم تُرفع لهم منك أصبع
فهذى ثلاث قد حويتَ نجاتَها ... وإن تَنجُ أخرى فهى عندك أربع[٦]

يقوم النقض هنا على معانى السرعة والسبق والمغالبة فى الفروسية التى هى خواص الصعاليك ، فكان من تأبط شراً أن سَبقَ حاجزا وصحبه ، وتغلب على جميع المسالك ، وسابق الطير فسبقه ، وعاد قوياً كما كان . وادعى حاجز أنه طالما

---

(١) تشنعوا تهيأوا للقتال . (٢) مهيع : بين . والوعث الطريق الغليظ العسر .
(٣) الأشوس القوى على القتال ، والأروع من يعجبك بحسنه أو شجاعته — الأغانى جـ ١٨ ص ٢١٨ بولاق . (٤) أسنع : طويل . عريان : شنيع .
(٥) العتر الصنم الذى يذبح له (٦) الأغانى جـ ١٨ ص ٢١٨

سبق أقرانه ، وترك منافسيه مُقيمين كأنهم قربان مذبوحة أونخيل مصرع يبكيهم صاحبهم . وأساس المناقضة هنا الموازنة أو المناظرة .

٧ — أغار البُوح بن الخلاس الطائى على جيران الحصين بن الحمام المرى ، من الخُرَقة فأخذ أموالهم ، وأتى الصريخ الحصينَ ،فتبع القومَ فأدركهم ، فقال للبُرج : ماصبّك على جيرانى يابرج؟فقال له:وما أنت وهم؟هؤلاء من أهل اليَمن،وأنشأ يقول:ـ

أنى لك الحرُقاتُ فيما بيننا ... عَنَن بعيدٌ منك يابنَ حُمامِ (١)

أقبلتَ تزجى ناقة متبـاطئاً ... عُلُطا تُزَجِّيها بغير خُطام (٢)

فأبه الحصين : ـ

بُرجٌ يؤثِّمنى ويكفر نعمتى ... صَمِّى لما قال الكفيلُ صَمامِ (٣)

مهلا أبا زيد فإنك إن تشأ ... أوردْكَ عُرضَ مناهل أسْدام (٤)

أوردْك أقلِبـة إذا حافلتَها ... خَوْضَ القعود خبيئةَ الأخصام (٥)

أقبلتُ من أرض الحجازِ بذِمّةٍ ... عُلُطا أسوِّقُها بغـير خُطام

فى إثر إخوان لنـا مِن طيىء ... ليسوا بأكفاء ولا بكرامِ

لاتحسبَنّ ، أخا العِفاطةِ ، أننى ... رجلٌ بِخُبرك لستُ كالملآم (٦)

فاستنزلوك ، وقـد بلاتَ نطاقها ... مِن بيتِ أمك ، والذيولُ دوامى

قامت هذه المناقضة على حماية الجار ، اعترض الأول على زميله بأن يحمى من هو غريب عنه ، وأنه ركب فى ذلك ناقة مهملة لاخطام لها ، فرد عليه الثانى فرماه بالعقوق ، وهدده ، وفخر بحمايته الجار ، و بزد أمواله .

---

(١) عنن : اعتراض (٢) علط لاسمة لها ولا خطام

(٣) صمى صمام: زيدى ياداهية (٤) أسدام جمع سدم : ماءمتغير أومندفق .

(٥) أقلبة جمع قليب أى البئر القديمة ؟ أو البئر مطلقا ، الأخصام الجوانب

(٦) العفاطة اللسكن .

٨ — ونوجز هنا ما دار بين خُفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمى والعباس ابن مرداس ، وذلك أن خفافاً قال وهو فى ملأ من بنى سُلَيم : أن عباس ابن مرداس يريد أن يبلغ فينا مابلغ عباس بن أنَس ، ويأبى ذلك خصال قعدن به : اتقاؤه بخيله عند الموت ، واستهانته بسبايا العرب ، وقتله الأسرى ، ومكالبة الصالعيك على الأسلاب ، ولقد طالت حياته حتى تمنيناموته ، فأبلغ العباسَ ذلك فتى منهم ، فقال له العباس : يابن أخى ، إن لم أكن كالأصم فى حلمه فلست كخُفاف فى جهله ، وقد مضى الأصم بما فى أمس وخلفنى بمـــا فى غد ، فلما أمسى تغنى : —

خفافُ ماتزال تجرُّ ذَيلا ... إلى الأمس المفارق للرشاد
إذا ما عاتبْتك بنو سُليم ... تبيتُ لهم بِداهية نَآدِ[1]
وقد علم المعـاشُر من سُلَيم ... بأنى فيهمُ حَسَنُ الأيادى
فأورد ياخُفاف فقـد بُليتم ... بنى عوف بحية بطنِ وادِ[2]

ثم أخذ يرد على ما قال خفاف فى نثر جميل على طريقة المناقضة النثرية أمام ملأ من سليم وانصرف فقال خفاف يرد على نثر عباس بأبيات منها : ـ

ولم تَقْتُل أسـيرَ من زَبيد ... بخالى، بل غدرتَ بمستقادِ[3]
فزَندك فى سُلَيم شر زَند ... وزادُك فى سُـلَيم شر زاد

فأجابه العباس بأبيات تهجوه ويتوعده بينهما . ثم كف العباس وخفاف ثم تحارب قوماهما ، ولـكن دُريد بن الصمة ومالك بن عوف أصلحا وقال دريد : كفوا صاحبيكم عن لجاج الحرب وتهادى الشعر ، فاستحيا العباس ، فقال : إنا نـكف عن الحرب وتهادى الشعر ، فقال دريد : إن كنتما لابد فاعلَين فاذكرا

---

(١) نآد : داهية ، بدل أوشديدة . (٢) أى بداه خبيث . (٣) مستقاد : ذليل .

ما شئتما ودعا الشتم فإن الشتم طرف الحرب ، فانصرفا على ذلك ، فقال العباس : —

فأبلغْ لديكَ بنى مالكٍ ... فأنتم بأنبائنا أخبرُ
فأما النخيلُ فليست لنا ... نخيلٌ تُسَقَّى ولا تُؤْبَرُ
وكنا جميعاً كجذل الحِكا ... كِ فيه المقنّعُ والمحسَرُ(١)
مَغاوير ، تحمل أبطالنا ... إلى الموت ساهمةٌ ضُمَّرُ(٢)
وأعددتُ للحرب خَيفانة ... تُديمُ الجِراء إذا تَخطِرُ(٣)

وأجابه خُفاف : —

أعبَّاسُ إنّ استعار القصيد فى غير مَعشره مُنكَرُ
علامَ تناولُ ما لا تنالُ ... فتقطعُ نفسك أو تخسَرُ
فإن الدهانَ إذا ما أُريد ... فَصَاحبُه الشامخ المخطرُ(٤)
تَخاوَصُ لم تستطع عدة ... كأنكَ من بُغضنا أعورُ(٥)
فقصرُك مأثورة إنْ بقيتُ ... أصحو بها لك أو أسْكَرُ
لسانى وسيفى معاً فانظرنْ ... إلى تلك أيهما تبدرُ(٦)

وطال الأمر بينهما حتى برم عباس بخفاف ورأى أنه تورط فيما لا ينبغى أن يكون عليه فى العرب عامة وفى قومه خاصة ، وقال من أبيات : —

ألم تر أنى تركتُ الحروبَ ... وأنى ندمتُ على ما مضى
ندامة زارٍ على نفسه ... لتلك التى عارُها يُتَّقَى

---

(١) جذل الحكاك عود ينصب للابل الجربى لتحتك به ، ويضرب مثلا لمن يلجأ إليه ويستغنى برأيه . (٢) مغاوير : كثيرو الغارات ، ساهمة : خيل عابسة .
(٣) خيفانة : فرس سريعة .
(٤) المخطر من جعل نفسه خطرا لصاحبه فبارزه.
(٥) تخاوص غض من بصره مع تحديق النظر . (٦) تبدر تعجل إليه .

فقال خفاف من أبيات : —

أعباسُ إمَّا كرهت الحروبَ ... فقد ذُقتَ مِن عضِّها ما كفى
أألقحتَ حرباً لها شِدةٌ ... زماناً تُسـعرّها باللظى[1]
فمـا ترقَّيت فى غيّها ... دحضت وزلَّ بك المرتقَى

وسعى أهل الفساد إلى خُفاف فقالوا : إن عباساً قد فضحك ، فقال خفاف : —

يأيها المهدى لى الشتمَ ظالماً ... ولستُ بأهل حين أُذكر للشتمِ
أَبَى الشتمَ أنى سَيِّدٌ وابن سادة ... مَطاعينَ فى الهيجا مطاعيمَ للجرم[2]
هم منحوا الضرا أباك وطاعنوا ... وذاك الذى يُرمَى ذليلا ولا يَرمى[3]

إلى آخر ما افتخر ، فقال العباس : —

يأيها المهدى لى الشتم ظالماً ... تَبَيَّنْ إذا راميتَ هَضْبةَ مَن تَرمى
أبى الذمَّ عِرضى إن عرضى طاهر ... وأنى أبىّ مِن أباة بنى غَشْمِ[4]
وإنى من القوم الذين دماؤهم ... شِفاء لطُلاَّب التِرات من الرغم[5]

وكان العباس وخفاف قد هما بالصلح وكرهت بنو سُلَيم الحرب ، فجاء غوىٌّ من رهط العباس ، فقال للعباس : إن خُفافاً قد أنمى عليك وعلى والديك فغضب العباس فقال : قد والله هجانى فكان أعظمُ ما عابنى به أصغرَ عيب فيه ، ثم هجا والدَىَّ فما ضرَّهما ولا نفعه ، ثم برزتُ له فأخفى شخصه واتقانى بغيره ولو شئت لشتمتُ أباه وثلبتُ عرضهُ وقال من قصيدة : —

أرانى كلما قاربتُ قومى ... نأوا عنّى وقطْعُهمُ شديدُ

---

(١) ألقحت حربا : أشعلتها .
(٢) الجرم من معانيه الحق .
(٣) من معانى الضرا شدة الحرب . (٤) الغشم الظلم :
(٥) التِرات جمع ترة : الثأر . والمعنى أنهم أمجاد أكفاء .

سئمتُ عتابَهم فصفحتُ عنهم وقلتُ لعلَّ حلمهمُ يعود
وعلَّ اللهَ يمكن مِن خُفاف فأسقيه التى عنها يحيد
بما اكتسبت يداه وجرَّ فينا من الشحنا التى ليست تَبيد

فلما بلغ خفافاً قول العباس قال: والله ما عبت العباس إلا بما فيه ، وإنى لسليم العُود ، صحيحُ الأديم ، ولقد أدنيتُ سوادى من سواده فلم أحجم ولا نكصتُ عنه ، وقال من قصيدة :

أرى العباسَ ينقصُ كل يوم ويزعم أنه ، جهلا ، يَزيدُ
فلو نُقضت عزائمه وبادت سلامته لكان كما يريد
ولكن المعايبَ أفسدته وخُلّفَ ، فى عشيرته زهيد

وقال أيضاً : —

أعباسُ إنَّا وما بيننا كصدع الزُجاجة لا يُجبَرُ

إلى آخر القصيدة ، فقال العباس : —

خُفاف ألم تر ما بيننا يزيد استعاراً إذا يسمر
ألم تر أنا نهين التِلا دَ للسائلين وما نغدر

حتى انتهى من قصيدته أيضاً[1] .

هذه السلسلة من النقائض التى دارت بين شاعِرَى سُليم تمتاز بجريانها فى حدود قبيلة ملحوظة المكانة من قيس عيلان ، وأنها بدأت فى قصد للبقيا على صلات القربى ، وأن عناصرها فضائل اجتماعية ، حتى إذا اشتد أوارها ، ودعت إلى القتال وجدت من يحد من سورتها ، ثم عادت قوية ملحة ، ولكنها لم تسَفّ على كل حال . وكانت طرائقها القلب ، والموازنة ، والتكذيب ، وغلب عليها الفخر وإن لم تخل من الهجاء .

٩ ــ كان أبو ذئيب الهذلى يهوى امرأة فاتهمها بخالد بن زهير وقال فى ذلك من قصيدة :

خليلى الذى دلّى لغىٍّ خليلتى ... جِهاراً فكل قد أصاب عرورُها
فشأنكها إنى أمين وإننى ... إذا ما تحالى مثلها لا أطورها
رعى خالد سرى ليالىَ نفسُه ... توالى على قصد السبيل أمورها
فلما تراماه الشَبابُ وغيَّهُ ... وفى النفس منه فِتنة وفجورها
لوى رأسَهُ عنى ومال بوده ... أغانيجُ خَود كان فينا يزورها[1]
تعلّقَه منها دلال ومُقلة ... تظل لأصحاب الشقاء تديرها
فان حراما أن أخون أمانة ... وآمَن نفساً ليس عندى ضميرها

فأجابه خالد بن زهير من قصيدة : —

لا يُبعدنَّ الله لُبَّك إذ غزا ... وسافر والأحلام جَمٌّ عثورها[2]
وكنتَ إماما للعشيرة تنتهى ... إليك إذا ضاقت بأمر صدورها
لعمرك أمّا أمُّ عمرو تبدلت ... سِواك خليلا، شاتمى تستخيرها[3]
فإن التى فينا زعمت ومثلها ... لَفيكَ ولكن لا أراك تخورها[4]
ألم تنتقذها من عويم بن مالك ... وأنت صفىّ نفسه وسجيرها[5]
فلا تجزعَنْ من سنة أنت سِرتَها ... فأول راض سُنةً من يسيرها
وإن كنتَ تبغى للظلامة مركباً ... ذلولا فإنى ليس عندى بعيرها[6]

هذه الأبيات من النقيضتين دارت حول امرأة كانت خليلة عُويم بن مالك،

---

(١) أغانيج جمع أغنوجة : الدل .
(٢) غزا ذهب .
(٣) تستخيرها : تستعطفها .
(٤) تخورها تعرض عنها :
(٥) سجيرها : صديقها .
(٦) الأغانى ج ٦ ص ٦٢ بولاق .

فاستغواها أبو ذؤيب الهذلى وأخذها لنفسه ، ثم غلبه عليها خالد بن زهير واتخذها خليلة له ، فرماه أبو ذؤيب بخيانة عهـــد الصداقة ، وركوب سبيل الغواية بعد الرشاد ، ومطاوعة نوازع الشباب ، ومفاتن النساء . فرد عليـه خالد ورماه بالجهالة بعد الحزم وادعى أن المرأة برمت به فآثرت عليه خالداً ، وأن هذا الغدر من شيمة أبى ذؤيب فهو الذى اغتصبها قبلا من عُويم بن مالك فاستن بذلك سنة الاستغواء وإذاً ، لا يعد خالد ظالماً بل الظالم أبو ذؤيب نفسه .

١٠ — كان النعمان بن الحارث الغسانى قـد حمى (ذا أقُر) وهو واد مملوء حمضاً ومياهاً فاحتماه النـاس ، و بنو ذبيان لم تتحامه فنهاهم النابغة وخوّفهم إغارة الملك عليهم فعـيروه بخوفه النعمان وأتوا الوادى فبعث إليهم الملك جيشاً فأصابهم فقال النابغة فى ذلك من قصيدة : —

لقد نهيتُ بنى ذُبيان عن أُقُرٍ ... وعن تَربُّعهم فى كل أصفار (١)

وقلتُ يا قوم إن الليث مُنقبِض ... على برائنِـــه لوثبةِ الضارى

إمَّا عُصيتُ فإنى غـير مُنفِلت ... مِنى اللِصابُ فجنبا حرَّةَ النار (٢)

أو أضعَ البيت فى سوداء مُظلمةٍ ... تقيّد العير لا يسرى بها السارى (٣)

تدافع الناسَ عنا حـــينَ نركبها ... من المظالم تُدعى أمَّ صَبَّار (٤)

ساق الرُفَيديات من جَوْشٍ ومن عِظَمٍ ... وماشَ مِن رَهْطِ رِبعِىٍّ وحَجّار (٥)

قَرْمَى قُضاعةَ حلاّ حول حُجرَتِه ... مدًّا عليه بُســلاّفٍ وأنفارِ (٦)

---

(١) أصفار جمع صفر وهو الشهر المعروف .

(٢) اللصاب جمع لصب وهو الثعب الضيق من الجبل ، وحرة النار ابى مرة

(٣) سوداء مظلمة : حرة خشنة صلبه

(٤) تدفع الناس عن مهاجمتنا فيها لوعورتها

(٥) الرفيـدات من بنى كلب ، وجوش وعظم أرض لبنى القين ، وماش خاط ، وربعى وحجار من عذرة (٦) القرم السيد ، السلاف المتقدمون

حتى استقلّ بجمع لا كفاء له ... ينفى الوحوش عن الصحراء جرّار
لا يخفض الرزّ عن أرض ألمّ بها ... ولا يضل على مِصباحه السارى[1]
وعيّرتنى بنو ذبيانَ خشيتَه ... وهل علىّ بأن أخشاك مِن عارِ؟[2]

فبلغ بدرَ بن حزار قول النابغة ، فقال يرد عليه ويذكر أن عمرو بن الحارث أخا النعمان أسر فى تلك الواقعة ناساً من بنى مُرة فيهم عم النابغة ، وكان النابغة قد قال : « أو أضع البيت » الخ يعنى الحرة ولم يفعل بل نزل (بَرَداً) وهى أرض سهلة ، فأغار عليه جيش لابن جفنة وقيل لرجل من قضاعة فأصاب ناساً من قومه فشمت به بنو فزارة فقال بدر :

أبلِغ زياداً وحَينُ المرء مُدْرِكهُ ... وإن تكَيَّسَ أو كان ابنَ أحذارِ[3]
أصطرّك الحِرزُ مِن ليلى إلى بَرَدٍ ... تختارُه معقلا عن جُشّ أغيارِ[4]
حتى لَقيتَ ابنَ كفّ اللؤم فى لَجَبٍ ... ينفى العصافيرَ والغِربانَ جرّارِ[5]
فالآن فاسعَ بأقوام غررتَهُم ... بنى ضِبابٍ ودع عنك ابنَ سيّارِ[6]
قد كان وافِدَ أقوام فجاء بهم ... وانتاشَ عانيَه مِن أهل ذى قارِ[7]

يرد بدر على النابغة ما ادعى من الحزم والكياسة وحسن التدبير ، ويرميه بالتغرير برهطه حتى وقعوا فى الشر .

١١ — وقال النابغة يهجو يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابى :

لعمرك ما خشيت على يزيد ... من الفخر المضلِّلِ ما أتانى
كأن التاجَ معصوباً عليه ... لأذواد أُصِبنَ بذى أبانِ

---

(١) الرز الصوت ، والمصباح النيران توقد ليلا (٢) ديوان النابغة ص٥٩
(٣) زياد هو النابغة » تكيس أظهر الكياسة ، ابن أحذار : حذر .
(٤) جش أغيار موضع من حرة ليلى ، برد هو المكان الذى أغير عليه .
(٥) لجب: جيش كثير الأصوات. (٦) بنو ضباب رهط النابغة.
(٧) انتاش أنقذ ، العانى الأسير .

فحسبُك أن تهاضَ بمحكمات ... يمرُّ بها الرويّ على لسانى
فقبلك ما شُتِمتُ وقاذعونى ... فما نَزَرُ الكلام ولا شجانى
يصدّ الشاعر المُئيانُ عنى ... صدودَ البكر عن قَرم هجان (١)
أثرت الغىّ ثم نزعتَ عنه ... كما حاد الأزبُّ عن الظِعان (٢)
فإن يقدر عليك أبو قُبَيسٍ ... نمطَّ بك المعيشة فى هوان (٣)
وتُخضَبُ لحيةٌ غدرت وخانت ... بأحمرَ من نجيع الجوف آنى
وكُنتَ أمينه لو لم تُخنه ... ولكن لا أمانة لليمانى

فأجابه يزيد فقال :

فإن يَقدِرْ علىّ أبو قُبيس ... تَجِدْنى عندَه حَسَنَ المكانِ
تَجِدْنى كنتُ خيراً منك غيباً ... وأمضى باللسانِ وبالسنان
وأىُّ الناسِ أغدرُ من شآمٍ ... له صُرَدانِ مُنطلِقِ اللسان (٤)
فإنَّ الغدرَ قد علمت مَعدّ ... بناهُ فى بنى ذُبيانَ بانى
وإن الفحلَ تنزع خُصيَاهُ ... فيُصبحُ جافراً قَرِحَ العجان (٥)

يعيّره النابغة بما يتكبر بغير حق ، ويهدده بالهجاء السائر ، ويفخر بغلبته الشعراء ، ويرميه بإثارته الشر ، ويوعده بما يلقى من الملك جزاء غدره ، فيكذبه يزيد ويثبت لنفسه حسن المكانة عند الملك ، والتقدم على النابغة ، وأن الغدر من شيمة ذبيان ، وأنه غالبه فى الهجاء .

١٢ — لما أبى أمية بن الأسكر الكنانى أن يزوج ابنته عامر بن الطُفَيل وزوجها يزيد بن عبد المدان ، وكانا يتنافسان عليها فقال يزيد من قصيدة :

---

(١) المُئيان : الممتاز البكر الفتى » والقرم الفحل الكريم ، والهجان الأبيض .
(٢) الأزب البعير الكثير الوبر ، والظعان جمال الهودج . (٣) نمط : تمدد وتبقى .
(٤) الصردان عرقان فى أصل اللسان . (٥) جافر عزل عن الضراب .

يا للرِّجال لِطارقِ الأحزان ... ولعامرِ بن طفيلِ الوَسنان

كانت إتاوةُ قومه لمحرِّقٍ ... زَمناً ، وصارت بعدُ للنعمانِ

عَدَّ الفوارس مِن هوازن كلِّها ... فخراً عليَّ ، وجئت بالديَّانِ

فإذا لى الشرف المتين بوالدٍ ... ضخم الدسيعة زانني ونماني

ليست فوارس عامر بمُقِرَّة ... لك بالفضيلة فى بنى عيلان

فإذا لقيتَ بنى الحماسِ ومالكٍ ... و بنى الضِباب وحيَّ آل قنان

فاسألْ عن الرجل المنوَّهِ باسمه ... والدافع الأعداء عن نَجران

يُعطَى المقادةَ فى فوارس قومه ... كرماً لعمرك والكريم يمان[1]

فأجابه عامر بن الطفيل : —

عَجباً لواصفِ طارقِ الأحزانِ ... ولمَا تجىء به بنو الديَّانِ

فخروا عليّ بحبوة لمحرِّقٍ ... و إتاوة سِيقت إلى النعمانِ

ما أنت وابنَ مُحرِّق وقبيلَهُ ... و إتاوةَ اللخمىّ فى عَيلانِ

فاقصد بذَرعك قصد قومك نصرَهم ... ودع القبائل من بنى قحطان

إن كان سالفةُ الإتاوة فيكم ... أولى ، ففخرُك فخرُ كل يمانى

وافخر برهط بنى الحماس ومالك ... و بنى الضِباب ورَعْبَلٍ وقيانِ

فأنا المعظَّم وابن فارس قُرزُلٍ ... وأبو بَراء زانني ونمـــانى[2]

هذه القصة ، و إن كانت موضع الشك منسوبة إلى ابن الكلبى وضعاً لضعف شعرها وعدم ملاءمته عصره ، فإنها تدل على صورة كل من الرهطين فى

---

(١) الأغانى حـ ١٠ ص ١٤٥ .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ص١٥٩ طبع أوربة

رأى شاعر الرهط الآخر ، وتناولت خضوع هوازن الملوك وفخر يزيد بحسبه ونسبه ، ثم رد عامر عليه بأن يفتخر بقومه إن كانت لهم مفاخر .

* * *

ونكتفى بهذه الشواهد راجين أن يجد فيها القارىء صوراً لقيام المناقضة حول الشئون الاجتماعية ، وقد يكون فيها تزيُّد أو وضع ، ولكنها ، فى جملتها دليل على اتصال هذا الفن بحياة السلم كما قوى واتسع فى ظل الأيام .

---

obeikandl.com

الفصل السادس

فى خواص النقائض الجاهلية

تمثل النقائض الجاهلية هذا الفن الشعرى فى طوره الأول كما بينا ذلك عند القول فى نشأته الأولى ، لذلك كان من الطبعى أن تتعثر النقائض إبان نشأتها فى هذه العقبات الأولى التى تتراءى فى طفولة كل فن وأوليته السابقة ، ثم تتسم بسمات البداءة والسذاجة قبل أن تقوم أركانها ، وتقرر أصولها ، وهى بعد ذلك خاضعة لكل ما يؤثر فيها من عوامل مكانية ، وزمانية ، واجتماعية ، وشخصية ، حتى تنتهى إلى صورتها العامة التى تمثلها فى هذا الطور القديم .

وقد لاحظنا أن هذه النقائض القديمة ظهرت نثراً أو حواراً عادياً فى بعض المشاكل الاجتماعية كما حدث بين امرىء القيس ورءوس بنى أسد فى أعقاب مصرع حجر والد امرىء القيس ، وهذا أمر طبعى إذا كان النثر أوسع صدراً وأرحب مجالا لهذه المحاجة الاجتماعية والجدل العقلى القائم على البراهين وشرح وجهات النظر ، والسرعة فى إبداء الرأى ، والاحتجاج له .

ثم رأيناها رجزاً كذلك ، نعم ، لست أرى أن يكون الرجز هو البحر العروضى الأول حتما ، ولكنه على كل حال ، من الأوزان التى وجدت فى الجاهلية وقطع عليها بعض الكلام ، وكان فناً شعبياً قليل النصوص ، يعتمد عليه الأعراب فى الاستقاء ، والحداء ، والأيام ، ونحوها واستعمل فى النقائض ساذجاً ، وبقى فى الإسلام ، وفى عصر بنى أمية ، بل وجدنا أن النقائض بين

جرير وخصومه بدأت مراجزة[١] وهذا معناه أن فن الرجز أقرب إلى تمثيل الحياة فى طورها الشعبى وحالاتها البدائية و إن لم يتحتم أن يكون أول الأوزان الشعرية على أية حال .

وظاهرة أخرى أن هذه النقائض الجاهلية قامت ، أول ما قامت ، على الركن الأساسى فيها وهو نقض المعانى دون التزام بحر أو قافية ، فكان ردوداً أو حواراً جدلياً ، انتقل من النثر إلى النظم فى صورة ماولعل مرجع ذلك أن الشعراء لم يكن قد حمى بينهم الجدل إلى درجة العدوى الموسيقية ، أو لم يكن قد حمى إلى درجة التحدى فعاشت النقائض الشعرية فى صورة أولية لم تتكامل تقاليدها النظمية المعروفة .

ولما كثرت الأيام ، وحميت العصبيات ، وتقدم الشعر ، وظهر الفحول ، واستحر التحدى بينهم ، وتعاظمت الجاهلية فى نفوسهم ، أخذت النقائض تطول ، وتتكامل عناصرها ، وتخضع للتحدى الموضوعى ، والمعنوى ، والموسيقى ، حتى تمت لها قواعدها المعروفة و إن لم تبلغ من القوة ، والطول ، والدقة ، والسيرورة ، والعناية ، والتأثير ما بلغت أيام الأمويين .

وقد كانت أصولها أو مقوماتها جاهلية كما رأيت ، فقامت على الأنساب والأصول الاجتماعية المقررة ، وأنشئت فى ظل الأيام ، وحميت بنار العصبيات القبلية واعترفت بالظلم ، والعدوان ، والمفاخرة بالأحساب والأنساب . نعم إنها لم تشتد فى سبيل الحياة الاجتماعية السلمية شدتها فى الحروب وما إليها ، وهذا طبعى ما دامت الحروب تهيج الانفعالات ، وتبعث الشعر ، وتقوى التحدى ، وكان الفخر والهجاء أهم فنونها بل أهم فنون الشعر الجاهلى جميعه ، وأهم فنون النقائض جميعاً .

---

(١) راجع مقدمة نقائض جرير والفرزدق عن أبى عبيدة .

كذلك قامت النقائض ، أكثر ما قامت ، فى سبيل القبيلة والإمارة ، وعدت بذلك من قبيل الشعر السياسى إذ كانت القبيلة دولة الشاعر وموئله ، وكانت الإمارة عرشه الملكى ، وجماعته السياسية الأخيرة قبل الإسلام[1] ثم قيلت النقائض فى سبل أخرى . ومهما تكن حماسة ، أو فخراً ، أو هجاء ، أو نسيباً ، أو غيرها ، فلقد كانت متأثرة بغايتها القبلية والملكية . وكانت بذلك أضيق أفقاً من النقائض الإسلامية التى قيلت فى سبيل الأمة العربيه أو الدولة الإسلامية .

نعم ، إن هذه النقائض لم تشغل العصر الجاهلى كما شغلت العصر الأموى ، أو الإسلامى الأول ، وذلك لتفرق القبائل والشعراء وعدم وجود غاية عامة أو وحدة جنسية تعمل المناقضة فى سبيلها ، ، كما عملت بعد فى سبيل الدين والدولة وشغلت الشعب ، والحكومة ، والأمراء ، والنقاد ، والعلماء ، والقبائل ، ونهض بها فحول الشعراء . وآية ذلك أن نقائض الأوس والخزرج فى مقدمة النقائض الجاهلية أهمية وسيرورة لتقارب القبائل والشعراء ، وللعمل فى سبيل سيادة يثرب وما حولها حتى كانت قبائل هذين الحيين أشبه بالأحزاب السياسية أو قبائل العرب أيام الأمويين .

ومن الأسباب التى حالت بين النقائض الجاهلية و بين إشغالها العصر القديم أنها كانت ظاهرة شعرية أكثر مما هى فن عتيدله أصوله ورجاله المعروفون ففى عصر الأمويين نهض بها الفحول ، وصيروها أظهر الفنون القديمة ، وشغلوا بها العصر والأقاليم ، وأسقطوا منها العاجزين والمتوسطين .

ومع ذلك فلَمْ تنحط النقائض الجاهلية إلى درجة الإسفاف الخلقى كما حدث أيام الأمويين ، ولم تهدر حدة العصبيات جميع ما بين القبائل من حرمات ،

---

(١) راجع تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ، الباب الأول .

وإنما لاحظنا فيها بُقيا على القرابة ، ورعاية للحُرُمات ،ووقوفاً فى الهجاء عندصفات الجبن والبخل والفرار بحيث لا تخلو المرأة من رواية النقائض الجاهلية والمشاركة فيها إذ كانت أطهر معانى وأبعدعن ذكر العورات والكلمات النابية المكشوفة ، لكانت السفاهة الأموية أوغل فى الإسفاف من الجاهلية الاولى ، وكان الإقذاع فى الهجاء ، وهو تفضيل شخص على آخر ، شر ما عرف الهجاء الجاهلى .

ومهما يكن من أمر فإن النقائض الجاهلية صورة صادقة لعصرها الأولى من حيث الموضوعات ، والمعانى ، والأساليب ، والغايات ، فلما جاء الإسلام وجد هذا الفن كامل الأداة فاعتمد عليه شعراؤه فى ظل النهضة الجديدة وكان معهم امتدادا لهذا الفن الجاهلى من حيث أصوله الفنية ، وإن طرأت عليه سمات جديدة بتأثير الحياة الإسلامية مما نفصله فى الباب الثانى .